منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2567) السنة التاسعة - الاربعاء (15) آب 2012

WWW. almadasupplements.com

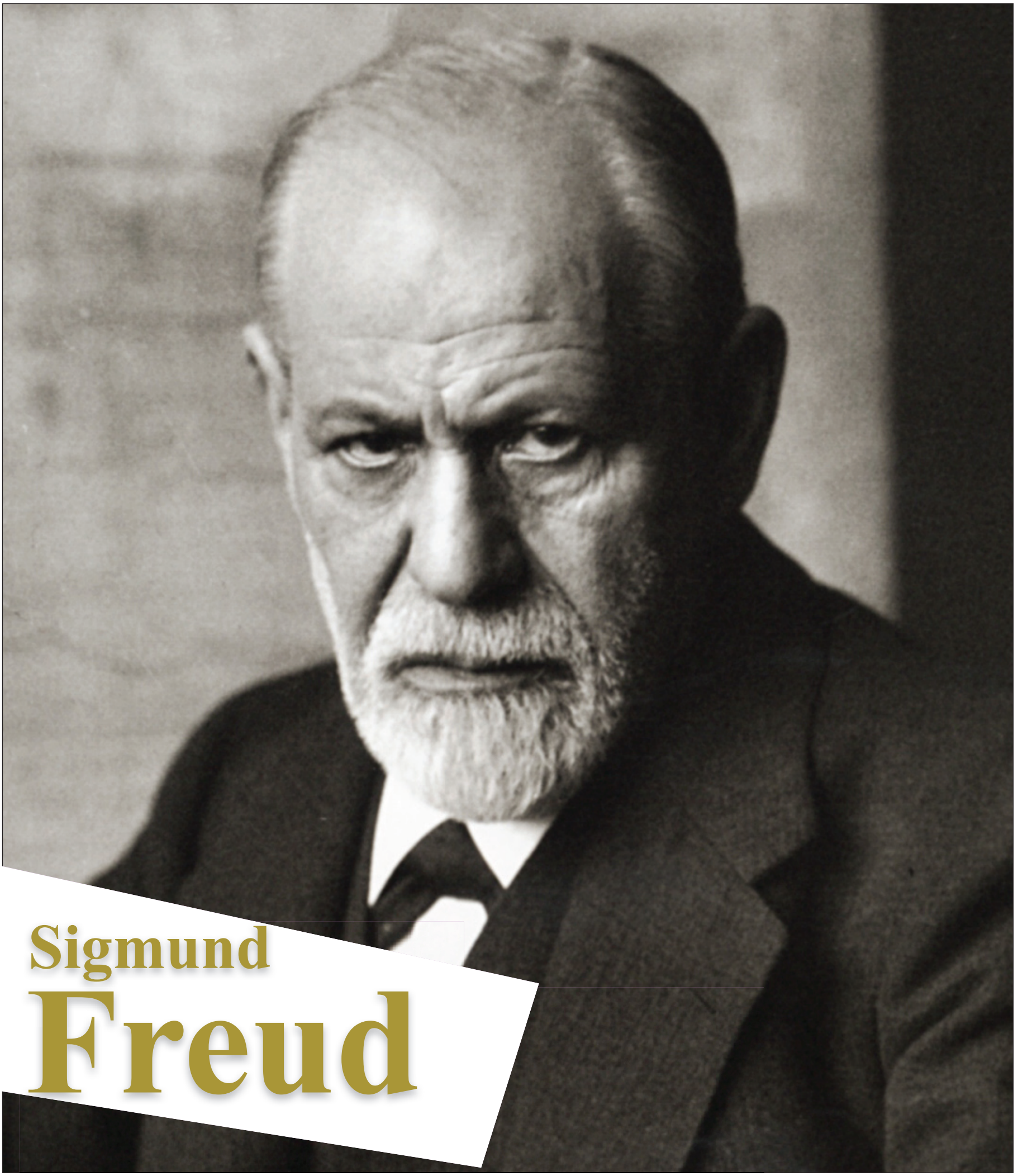

Sigmund Freud

سيغموند فرويد في الذاكرة

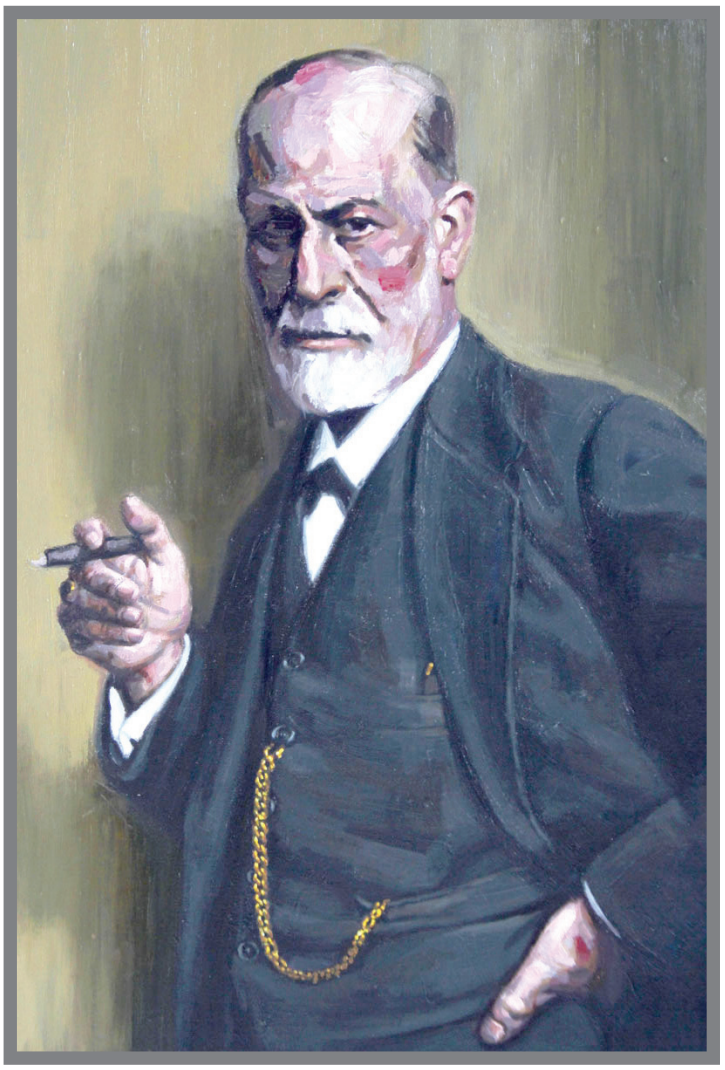

فيصل الياسري

في كل مرة ازور فيها فيينا تقودني قدماي إلى بعض شوارعها، التي عا يشتها قبل عشرات السنين – أيام الدراسة – فأتفقد المعالم واسترجع بعض ما حفظته الذاكرة عن هذه المدينة الثرية حضاريا! ومن أول ما اذهب إليه هو شارع الاسباني الأسود (شفارتس شبانير) حيث مقهانا المفضل ونحن طلبة، ويقع تحت المنزل الذي توفي فيه الموسيقار بيتهوفن قبل مائة وثمانين عاما (١٨٢٧).. فوجدت المقهى قد تحولت الى مكتبة علمية..

فواصلت سيري مع امتداد الشارع حيث ينحدر زقاق الجبل (بيرغ غاسه) الذي قطنت فيه سنتين في غرفة صغيرة في شقة ذات طراز كلاسيكي تعود للسيدة نوفاك على بعد أربع بنايات من المنزل الذي أقام به لسنوات عديدة العالم النفساني الشهير سيغموند فرويد!

كانت السيدة نوفاك معجبة بجارها القديم فرويد وقد خصصت لمؤلفاته رفا في مكتبتها، وكانت تعتز بنسخة من كتاب (العلاج النفسي للجميع) عليه إهداء بخط فرويد الذي كانت تتفاخر بانه كان جارها ، وانها قد عرفته عن قرب قبل ان يغادر الى لندن ليموت هناك بمرض السرطان عام ١٩٣٩!!

صورة منزل فرويد في فيينا ×××

اقتربت من المنزل الذي تؤكد لوحة على واجهته أن فرويد قد عاش فيه لسنوات عديدة، فوجدت أمامه حركة غير عادية، ثم علمت انهم يحتفلون بالذكرى الخمسين بعد المائة لميلاد سيغموند فرويد الذي تتناقض الآراء حول نظرياته في الطب النفسي من أقصى الإعجاب إلى أقصى الرفض الذي قد يصل الى حد اتهامه بالشعوذة والمكر العلمي!! وقد تصدت للدفاع عنه ابنته الطبيبة آنا فرويد في كتابها(منهج فرويد) مستعرضة تاثيره الايجابي في نواحي عديدة وحتى على الفنون ومنها مثلا على الحركة السريالية في التشكيل (كما في لوحة بشاعة الحرب للرسام الاسباني سلفادور دالي) وفي السينما (كما في أفلام هتشكوك)!!

كان الاحتفال بالذكرى المائة والخمسين لميلاد فرويد مناسبة جديدة لاثارة كل الاراء السلبية والايجابية حول أطروحاته المتعلقة باللاوعي والتحليل النفسي وتفسير الاحلام واغراءات الطفولة وتاثير العامل الجنسي والاغواء والشبق على السلوك الانساني!

فهذا نابوكوف مؤلف رواية لوليتا يسمي فرويد بدجال فيينا / والفيلسوف كارل بوير لا يعتبر مؤلفات فرويد اعمالا علمية / ويقول العالم الالماني غرونباوم ان فرويد اعتمد التضليل في احكامه الخاصة باللوعي واللاوعي!! بينما يعترف الكثير من الروائيين الاوروبيين والامريكان بفضل تعاليم فرويد الخاصة بالتحليل النفسي على ما كتبوه من روايات لاقت نجاحا!

فراو نوفاك – التي كنت اسكن في غرفة بمنزلها على بعد خطوات من منزل فرويد – كانت متعصبة لفرويد (جارها القديم) ولا تكل من سرد سيرته على مسامعي وكيف جاء مع عائلته الى فيينا وعمره اربع سنوات، وانه كان تلميذا متفوقا وقد احتل المرتبة الأولى في صفه عند التخرج ، وانه التحق بمدرسة الطب عندما بلغ السابعة عشرة من عمره وكان أمل فرويد أن يصبح عالما في التشريح ولكنه تخصص بمعالجة امراض الأعصاب عام ١٨٨١م.– وتقول فراو نوفاك انها كان تعرف زوجته مارتا التي أنجبت له ستة أطفال ثلاثة بنين وثلاث بنات وأصبحت احدهن(أنا) طبيبة معروفة في لندن متخصصة بإمراض الأطفال النفسية!.

كانت السيدة نوفاك تحتفظ بمعلومات دقيقة ومفصلة عن فرويد نابعة عن اهتمامها الشخصي به فتذكر بداياته في الثمنينيات من القرن الماضي مع بروير (توفي ١٩٢٥) الذي كان طبيبا ناجحا في استخدام التنويم المغناطيسي لعلاج الهستيريا ، وقد عمد الاثنان إلى استعمال طريقة التحدث مع المرضى فنجحا بعض النجاح وصارت طريقتهما مزيجاً من التنويم والحديث، ثم سافر فرويد الى باريس ليدرس على يد طبيب نفساني فرنسي مشهور (جين شاركوه) الذي كان يستخدم التنويم المغناطيسي ايضا في علاجه للهستيريا. كانت زيارة فرويد إلى باريس هامة لسببين على الاقل، الأول هو ان فرويد تعلم من شاركوه إمكانية علاج الهستيريا كاضطراب نفسي و ليس كأضطراب عضوي! والثاني انه سمع شاركوه يؤكد بحماس ان اساس المشكلات التي يعاني منها احد مرضاه جنسي!! وهذا لفت اهتمام فرويد إلى إمكانية ان تكون المشكلات الجنسية سببا في الاضطرابات النفسية!!

استطيع أن أقول الآن إن السيدة نوفاك هي التي (ثقفتني) فرويديا، وكانت تقف أمام مكتبتها وتسحب كتاب (مدخل في التحليل النفسي) وتقول هذا من اهم اثار فرويد الى جانب كتابه تفسير الأحلام (الحلم عند فرويد هو انحراف عن الرغبة الأصلية الكامنة في أعماق النفس وهي رغبة مكبوتة يقاومها صاحبها في مستوى الشعور ويعيدها إلى اللاشعور، وأثناء النوم عندما تضعف الرقابة تأخذ طريقها باحثة لها عن مخرج) أما في كتابه (الأنا وألهو das ich und das es – نشره عام ١٩٢٣) فيطرح فرويد ثلاثة مصطلحات هي: (الأنا و الأنا العليا والهو) لتقسيم النفس البشرية ويرى ان هذه المصطلحات تقدم وصفا ممتازا للعلاقات التفاعلية بين الوعي و اللاوعي / فالأنا (واعية) تتعامل مع الواقع الخارجي، و الأنا العليا (واعية جزئيا) وهي تقوم

بدور المحاكمة الأخلاقية الداخلية في حين تمثل الهو اللاوعي كونها مخزن الرغبات و الغرائز اللاواعية و الدوافع المكبوتة!! ومن هذه التركيبة الثلاثية فسر فرويد نظريته بخصوص كيفية تنظيم نشاط العقل البشري وفهم سلوك الإنسان، وعليه نشأت أكثر تعاليم فرويد شيوعا حتى على المستوى الشعبي، نظرية التحليل النفسي للتعرف على شتى نواحي السلوك الإنساني!!

وتستند نظرية التحليل النفسي الفرويدية على أسس ثلاثة هي: الجنس – الطفولة – الكبت الذي هو دعامة نظرية التحليل النفسي، ويدعو أهم قسم فيها إلى الرجوع إلى الطفولة المبكرة للكشف عن المشاعر والأحاسيس الخفية عند الطفل والتي يحاول فرويد غالبا ان يجد لها محركات جنسية حتى في مص الأصابع عند الأطفال!. فالجنس عند فرويد هو النشاط الذي يستهدف اللذة وهو يلازم الفرد منذ مولده إذ يصبح الأداة الرئيسة لاستجابة الطفل لمفردات العالم الخارجي والتعامل معها، فأطلق مفهوم (عقدة اوديب) لتجسيد تعلق الشخص بأمه و(عقدة الكترا) لتعلق البنت بابيها!!

وقد طبق نظرياته هذه حتى على فهم الدوافع الأساسية للأعمال الإبداعية وربطها بالغرائز الكامنة لدى الفنان، بل إن فرويد يرى أن علم النفس قادر على تفسير كل ما يدور في حياة الإنسان فنراه في كتابه (مضايقات الحضارة – صدر ١٩٣٠) يحاول أن يجيب على السؤال " لماذا لا يحظى الانسان بالسعادة التي ينشدها؟ " ويزعم أن الشعور بالذنب هو السبب الرئيسي لتطور الحضارة. ولكن الإنسان كثيرا ما يضع الذنب على غيره ويسمي فرويد هذا السلوك بالإسقاط Projection - والإسقاط هي حيلة دفاعية يعزو الشخص عن طريقها لآخرين أحاسيس وعواطف ومشاعر يكون قد كبتها بداخله، فينسب الفرد عيوبه و رغباته المحرمة و العدوانية أو الجنسية للناس حتى يبرأ نفسه و يبعد الشبهات عنه، فالكاذب يتهم معظم الناس بالكذب، و المرأة التي تحب جارها قد تتهمه بمغازلتها. والموظف الذي يحمل مشاعر عدوانية نحو رئيسه قد يسقط هذه المشاعر عليه و يتصور أن رئيسه يكيد له و يتربص به لكي يؤذيه فيبادر الموظف بالهجوم و الاعتداء!!

يقول فرويد في كتابه (مدخل إلى النرجسية – الصادر ١٩١٤) إن الإسقاط يتجسد بصورة خاصة عند الشخص النرجسي الذي يضع اللوم دائما على الأخر لأنه – النرجسي – لا يمكن أن يعتبر نفسه مخطئا في شيء، فيبحث عن أسباب الفشل والتقصير عند غيره ويدافع من أنانية مفرطة يرى النرجسي – وهو إنسان عاشق لنفسه – يري أنه أفضل الناس و يستبيح لنفسه استغلال الناس وتسخيرهم. والنرجسي يهتم كثيرا بمظهرة وكيف يبدو في عيون الأخرين وكيف يثير أعجابهم ويستفزه التجاهل جدا ويحنقه النقد ولا يريد أن يسمع إلا المديح وكلمات الإعجاب.

كانت فراو نوفاك – ربة البيت الذي اسكن فيه – قد تعلمت من نظريات فرويد إن تفسر كل سلوك إنساني بأنه نابع عن غريزة خيرة أو شريرة، ومن ذلك الحرب العالمية الثانية التي عاشت ويلاتها.. وهي تعتبر كل حرب مجرد قتل وتدمير لا تكسب منها الإنسانية شيئاً في نهاية الأمر، مهما كانت هوية المنتصر أو المهزوم....وهو كلام اقتبسته نوفاك على ما يبدو من رسالة وجهها عام ١٩٣٢ فرويد إلى اينشتاين بناء على دعوة من عصبة الأمم إلى عدد من كبار مفكري العالم لتبادل الخطابات والأفكار حول سؤال مركزي واحد هو «لماذا الحرب؟»! وكانت الرسالة الأولى من مؤسس النظرية النسبية اينشتاين حيث اقترح فيها على فرويد أن يكون تبادل الرسائل بينهما متعلقاً بمسألة ما يمكن فعله بغية حماية الإنسانية من لعنات الحرب!! وقد كان اينشتاين قد بدأ رسالته بالإشارة إلى العلاقة بين الحق والقوة، فيرد عليه فرويد بأنه من الأجدى إبدال كلمة «القوة» بكلمة «العنف» لأنها أكثر جسارة وفظاظة؟

يقول فرويد: إن الناس عموما يحلون صراعات المصالح بينهم باستخدام العنف. وكانت القوة العضلية في البداية، الأكثر تفوقاً في قطيع بشري صغير وهي التي تقرر من يملك الأشياء، وإرادة من هي التي ستسود». ولكن سرعان ما أضيفت الأدوات الى القوة العضلية، «فالفائز بات من يملك الأسلحة الأفضل أو من يستخدمها في شكل أكثر مهارة... ومع استخدام الأدوات – أي الأسلحة– بدأ التفوق يحلّ محل القوة العضلية. ولكن الغرض النهائي من القتال بقي كما هو: إجبار الطرف الآخر على التخلي عن طلبه بفعل شل قوته أو وقف مسيرته بفعل الدمار الذي يلحق به. وهذا الغرض يتحقق بالكامل إذا أباد عنف المنتصر خصمه بصفة نهائية، أي بعبارة أخرى إذا ألغى وجوده أي قتله. إضافة إلى أن قتل العدو كان يشبع ميلاً غريزياً!! ثم اكتشف المتحاربون ان العدو المهزوم يمكن ان يستخدم في إنجاز خدمات مفيدة للمنتصر إذا ترك حياً ولكن في حالة من الخوف المستديم وهكذا كانت بداية فكرة الإبقاء على حياة العدو.. فنشأت عادة اخذ الأسرى... ولكن كان يتعين على المنتصر أن يعالج تعطش خصمه المهزوم الى الانتقام... ويستخلص فرويد من هذا ان تاريخ الجنس البشري هو سلسلة لا نهاية لها من الصراعات بين جماعة، أو جماعات، وأخرى... بين كيانات أكبر وأصغر... تتم تسويتها دائما بقوة السلاح – ويرى فرويد «أن الحروب لن تمنع إلا إذا اتحدت الإنسانية في إقامة سلطة مركزية يسلم إليها حق إصدار الحكم على كل الصراعات بين المصالح» مما يعني في علم السياسة خلق سلطة عليا وتزويدها بالقوة الضرورية.. (أكانت أفكار فرويد هذه منطلقا لتأسيس هيئة الأمم المتحدة؟!)

بعد الحديث السياسي، يعود فرويد في رسالته الى اينشتاين للحديث عن الغريزة البشرية وعن اختيار الحرب كوسيلة للبقاء أو للسيطرة. ومن هنا يقول مخاطباً أينشتاين: ان الغرائز الإنسانية نوعان: غرائز تسعى للحفاظ على النوع والتزواج التوحيدي – ونسميها غرائز شبقية، بالمعنى الذي يستخدمه أفلاطون ونسميها

نحن غرائز جنسية، وغرائز أخرى تسعى الى لتدمير والقتل والتي نصنفها معاً على انها غرائز عدوانية أو تدميرية. وهذا ما يوضح التعارض المألوف بين الحب والكراهية

ويرى فرويد أنٍ ظواهر الحياة تنشأ من عمل النوعين معاً، فالغريزة التدميرية تعمل داخل كل كائن حي من أجل تحطيم الحياة وردّها الى حالها الأصلية، حال المادة غير الحية. ومن هنا فإنها تستحق أن تسمى غريزة الموت، بينما تمثل الغرائز الشبقية/ الجنسية الجهد من أجل الحياة. وبذا يرى فرويد أن المخلوق الحي يعتقد دائماً انه يحافظ على حياته الخاصة من طريق تدمير حياة خارجية.

ما الذي ينقذ الإنسانية من الحروب ومن التدمير..؟ يرى فرويد ان ما يمكن ان ينقذ الإنسان من الغرائز التدميرية هي الثقافة!! لأن الثقافة تفعل قبل أي شيء آخر، في مجال تقوية العقل الذي يتحكم في الحياة الغريزية، ويكبح الدوافع العدوانية.! ويقول فرويد (قد لا يكون من قبيل التفكير الطوباوي أن نأمل بأن يؤدي الموقف الثقافي من ناحية، والفزع المبرر من عواقب الحرب من ناحية ثانية، الى وضع نهاية لشن الحروب» أما بأية سبل وعلى أية خطوط جانبية سيتم هذا الأمر «فذلك أمر لا قبل لنا بتخمينه. ولكن شيئاً واحداً يمكننا أن نقوله: ان كل ما يدعم نمو الثقافة يفعل في الوقت نفسه ضد الحرب)

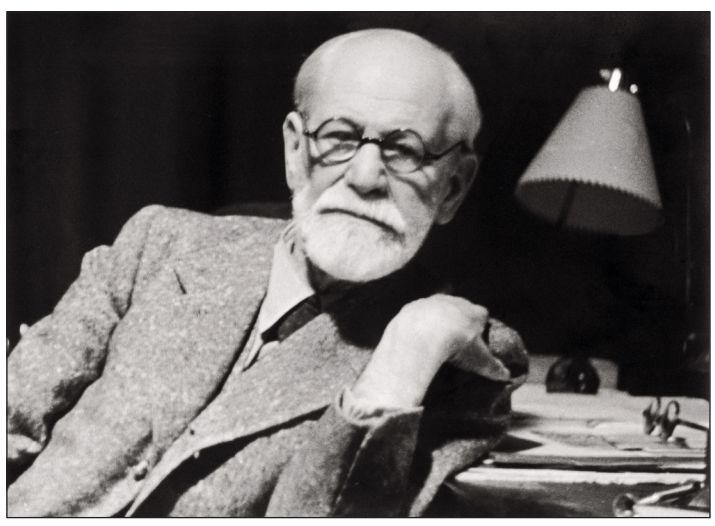

صورة فرويد على العملة النمساوية

تركت منزل فرويد والمحتفلين بذكرى ميلاده الخمسين بعد المائة، وتوجهت إلى نهاية الشارع حيث كنت اسكن عند السيدة نوفاك، لم أتوقع وجودها بعد كل هذه السنين ومع ذلك صعدت إلى الدور الأول، وفرحت عندما وجدت لوحة اسمها ما زالت على الباب!! قررت أن أدق الجرس واسأل.. ففتحت لي الباب شابة ما زالت بملابسها المنزلية ونظرت إلي متسائلة بعد أن ردت على تحيتي مبتسمة بتحفظ!! قلت لها (قد يثير الغرض من زيارتي دهشتك... إنا اسأل عن السيدة نوفاك...!)

أثار سؤالي فعلا دهشتها وقالت (فراو نوفاك.. هذه ماتت قبل أكثر من ثلاثين سنة.. قبل أن أولد أنا!!)

أشرت إلى اللوحة المعلقة على الباب وقلت (ولكنني أرى أن اسمها ما زال معلقا هنا..! هل انتم من عائلتها.. اقصد تحملون نفس الاسم؟)

أجابت الشابة (أبدا.. ولكن رفع اللوحة النحاسية سيترك آثرا على خشب الباب.. كما ان بقائها فيه نكهة تراثية)

تجرأت وقلت (أنا كنت اسكن هنا قبل أن تولدي.. هل لي ان القي نظرة على غرفتي.. اقصد غرفتي السابقة.. هي الثانية إلى اليسار..)

بعد تردد ونظرة فاحصة، وجرأة غير مألوفة في زمن انعدمت فيه الثقة بين الناس وشاع فيه الحذر من الإرهاب والأذى، أفسحت لي الطريق قائلة (تفضل..)

دخلت الشقة بحذر وأدب شديدين، وفتحت لي باب الغرفة المقصودة فألقيت عليها نظرة من الباب دون ان ادخلها.. التفت الى الشابة قائلا (أرى ان كل شيء قد تغير!! عفوا لهذه الملاحظة الساذجة.. طبعا ان الامور قد تغيرت.. بعد كل هذه السنين.. ولكن لي سؤال صغير.. السيدة نوفاك كانت تملك في غرفة الجلوس مكتبة غنية بالكتب..)

أجابت الشابة بشيء من التباهي وقد بدأت تطمأن لي (هذه ما زالت موجودة كما هي.. تعال انظر..)

كانت المكتبة فعلا كما كانت عليه قبل أربعين سنة وأكثر.. اقتربت منها.. ما زال الرف الذي يحمل كتب فرويد كما هو.. قلت (هذا الرف يحمل كتب فرويد.. كانت فراو نوفاك معجبة به.. هل قرأت كتب فرويد؟)

-(أبدا.. لم يخطر ببالي يوما حتى ان ازور منزله الذي يبعد عنا خطوات!)

سحبت كتاب (مدخل في التحليل النفسي) وقلت (انظري.. هذا الكتاب عليه إهداء للسيدة نوفاك بخط فرويد!)

خطفت الكتاب من يدي وهي تهتف (عظيم.. هذا سأبيعه عن طريق الانترنيت.. سيجلب لي بلا شك مبلغا كبيرا..خاصة في هذه الأيام.. ذكرى مائة وخمسين سنة على ميلاد فرويد!)

كتب هزت العالم

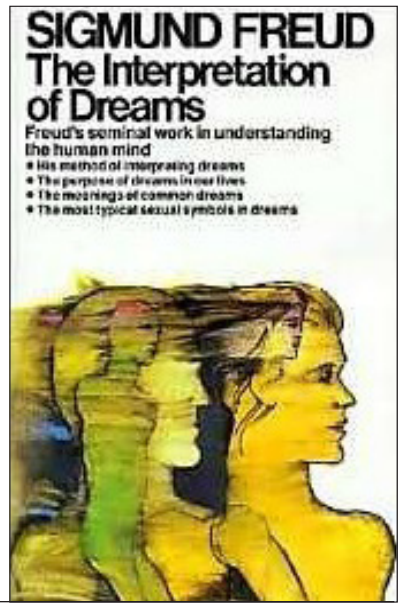

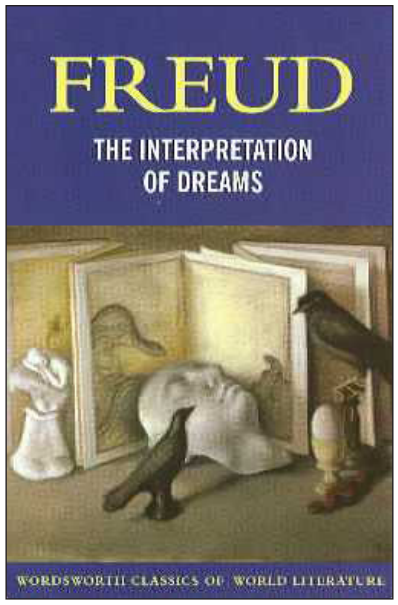

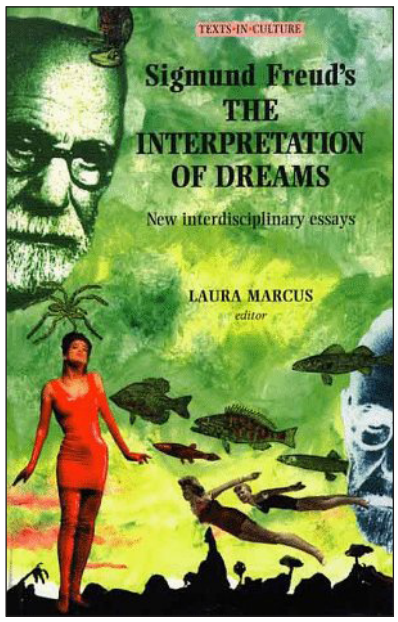

تفسير الأحلام.. فرويد

ابدت الكتب قوة هائلة من اجل الخير ومن اجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشري.. في هذه الصفحات سنقدم مناقشة لعشرة كتب كان لها تاثير في التاريخ والاقتصاد والثقافة والعلوم من عصر النهضة الى يومنا هذا انها كتب بالغة القوة نقدمها واحدا منها هو كتاب تفسير الاحلام للعالم النمساوي سيغموند فرويد.. والكتب من اختيار الدكتور روبرت داونز الرئيس السابق للمكتبة الوطنية الامريكية يبين بوضوح ذلك النفوذ الواسع للكتاب، كتاب داونز صدر في الخمسينيات من القرن الماضي اراد فيه المؤلف ان يقدم عرضا مثيرا للكتب من عدة عصور تبين القوة الهائلة للكلمة المطبوعة واثرها في التقدم البشري.

امام الرجل العامي كأعظم مفسد للسرور في تاريخ الفكر البشري، يحول مزاح الانسان ومرحه الى كبت محزن غريب، ويجد العداوة في جذور الحب والضغينة في قلب الرقة، والزنا بالاقارب في المحبة البنوية، والاجرام في السخاء وكراهية الاب المكبوتة، كطبيعة بشرية عادية موروثة".

ومع هذا، فبسبب فرويد، تختلف فكرة الناس، اليوم عن انفسهم، يعتقدون ان افكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الادراك على الوعي، والاساس الجنسي لاضطراب وظائف الاعصاب،ووجود الغريزية الجنسية لدى الاطفال واهميتها، ووظيفة الاحلام، وعقدة أوديب، والكبت والمقاومة وقراءة الافكار، يعتقدون ان هذه الافكار امور عادية، ثم ان عيوب الانسان كفلتات اللسان ونسيان الاسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية، تتخذ اهمية جديدة عن النظر اليها من وجهة نظر فرويد. ومن الصعب الان ادراك مقدار التعصب الذي كان على فرويد ان يتغلب عليه عند نشر نظرياته، اذ كان ذلك اشد بكثير مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين.

عندما ولد فرويد في قرايبرج احدى مدن مورافيا لم يكن كتاب الانواع قد ظهر بعد كان ذلك في عام ١٨٥٦، وكان اسلاف فرويد مثل اسلاف كارل ماركس، حاخامات، بيد ان فرويد، على عكس كارل ماركس، قال: "بقيت يهودياً"..انتقل فرويد وهو في الرابعة من عمره، مع اسرته، الى فيينا حيث قضى كل صباه.

وتبعاً لأهم كاتب لتاريخ حياته ارنست جونز، يدين لوالده تاجر الصوف، "بارتيابه الحكيم في تقلبات الحياة غير المؤكد، وعادته في ذكر مبدأ اخلاقي برواية قصة يهودية، وعدم اعتقاده في امور الدين". وعاشت والدة فرويد حتى بلغت الخامسة والتسعين من عمرها.. شخصية جمة النشاط ولافرة الحيوية، وكان سيغموند هو مولودها البكر وابنها المحبب. وبعد ذلك كتب يقول: "ان الانسان المتمتع بالحظوة غير المتنازع عليها لدى امه، يحس طول حياته بمشاعر القاهر، وهي الثقة بالنجاح الذي يحث غالبا على النجاح الحقيقي".

أولع فرويد في اول حياته بنظريات داروين لأنه أحس بأنها "توحي بامال في تقدم خارق لمفهومنا عن العالم" واذ رغب في ان يكون طبيبا، التحق بجامعة فينا ليدرس الطب، ونال البكالوريوس في عام ١٨٨١، واذ عين طبيب امتياز مقيما في المستشفى العام.

استمر في دراسة علم الاعصاب وتشريح المخ.

وبعد بضع سنوات، حدث التغير في حظه الذي انتهى برسوخ شهرته العالمية. صحبه زميل جائل الى باريس ليعمل تحت امرة جان شاركو، الذي كان وقتئذ استاذا فرنسيا واسع الشهرة في علم الامراض واختصاصيا في الاعصاب فحظي بالاتصال المباشر باعمال شاركو في الهستيريا وعلاجه لها بالتنويم الايحائي، ومما اعجب فرويد برهنة شاركو على صحة الظواهر الهستيرية وانقباض العضلات الهستيري بالتنويم الايحائي"، ومشابهتها في مظهرها عموما بنوبات الهستيريا الحقيقية.

غير انه لما رجع فرويد الى فيينا، لم يستطع اقناع زملائه الاطباء بأي اساس علمي لعلاج الاضطرابات العصبية بطرق التنويم المغناطيسي، والادهى من ذلك انه عوقب على آرائه المتطرفة باستبعاده من معمل تشريح المخ.

ومنذ ذلك الوقت صار شخصية منعزلة وانسحب من الحياة الاكاديمية.. وانقطع من حضور اجتماعات جمعيات العلماء. واثناء ممارسته الخاصة للطب، استمر سنوات عدة يجري التجارب بالتنويم المغناطيسي،ولكنه هجر تدريجيا اذ لم يخضع لتجاربه غير القليل من الناس، ولان التنويم المغناطيسي نفسه ينتج احيانا اثارا مفجعة على الشخصية التي ينومها.. فاستعاض عن ذلك بتطوير الطرق المعروفة باسم "المشاركة الحرة" التي صارت منذ ذلك الوقت مهنة التحليل النفسي الاصلي.

لاجدال في ان فرويد هو مؤسس طب الامراض العقلية الحديث. فقبل عصره كان طلب الامراض العقلية يتناول اغراض الجنون، مثل انشقاق الانف ومرض العقل الجنوني الهبوطي، الذي يحتاج الى العزل في مستشفى الامراض العقلية.. بدأ فرويد عمله الاكلينيكي بعلاج حالات الكبت والتنازع العصبي، وسرعان ما استنتج ان مثل هذه التنازعات ليست قاصرة على مرضى الاعصاب، بل تصيب ايضا سليمي العقول، وعلاوة على ذلك، ليست الاضطرابات العصبية امراضا بالمعنى الصحيح، بل حالات نفسية للعقل. وكانت المشكلة الكبرى هي كيفية علاج هذه الاضطرابات العقلية الواسعة الانتشار، وبناء على ملاحظاته وتجاربه وممارساته علاج كثير من مرضى فيينا، بني أسس التحليل النفسي في اواخر ذلك القرن.

كان فرويد من اعظم كتاب العلوم الكثيري التصانيف في عصرنا.. فلا يمكن ان نجد مجموعة الافكار الجديدة والاراء السيكولوجية التي خرجت من قلمه، في أي كتاب فرد أو صحيفة واحدة.

ومن المحتمل انه كان ينظر الى اول مؤلف له، وهو المؤلف العظيم "تفسير الاحلام" الذي صدر في عام ١٩٠٠ كأكثر مؤلف حبيب الى نفسه، ويضم جميع الملاحظات والاراء الاساسية تقريبا.

وفي احد مؤلفاته الاولى بعنوان "دراسات في الهستيريا" الذي نشر في عام ١٨٩٥، ذكر اعتقاده بأن الاضطرابات الجنسية هي "العامل الاساسي واهم اسباب الاضطرابات العصبية والاضطرابات العصبية النفسية". وهي احد احجار الزاوية في نظرية التحليل النفسي، وفي السنوات القليلة التالية، كتب فرويد آراءه في المقاومة، وانتقال الافكار ومشاكل الجنس في عهد الطفولة، والعلاقات بين الذكريات البغيضة والاوهام، وميكانيكية الدفاع والكبت.

يبين ملخص موجز للنظريات الاساسية، شيئا من تعقيد التحليل النفسي، فأولا ليست كلمة الامراض العقلية وكلمة الامراض العقلية النفسية مترادفتين، يمكن اعتبار الامراض العقلية النفسية فرعا من الامراض العقلية وتطبق عموما على اشد حالات اضطرابات الشخصية صعوبة. ثم يمكن تعريف التحليل النفسي بأنه فن علاجي اتفق على على ان علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الإخرى في انه اكثرها غموضاً واعظم لغزاً بينها، واقل جميع العلوم قابلية للبرهان العلمي. ففي طبيعة الاشياء، لامفر من الزوغان وعدم قبول التكهن، لأن العالم النفساني، يتناول اعظم الظواهر الطبيعية غموضا، فأية نظرية في الكيمياء أو في علم الفيزياء، يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحة اية نظرية في علم النفس. ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيغموند فرويد والمحللين النفسانيين لمدة تزيد على الستين عاماً.

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها، فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث.. وحتى اينشتاين نفسه لم يمس تصورات معاصريه او يتدخل في حياتهم مثلما فعل فرويد. صاغ فرويد افكاراً ومصطلحات في محيط المناطق المجهولة من العقل، صارت جزءا من حياتنا اليومية، لقد احس بآثار تعاليمه كل مجال من المعارف –الادب والفن والدين وعلم الاجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الاجرام والتاريخ، وتاريخ حياة الافراد وغير ذلك من دراسات المجتمع والفرد.

برغم كل ذلك، هناك بعض الحلاوة والضوء في هذه التعاليم،وقد ابدى احد النقاد غير الاوفياء ملاحظته قائلا:

"عندما انتشرت نظريات فرويد، ظهر

لمداواة الاضطرابات العصبية والنفسية.
وتبعا لتقرير حديث، يوجد مجرد ثلثمئة اختصاصي في التحليل النفسي من بين اربعة الاف طبيب نفساني في الولايات المتحدة الاميركية.
لم يعجب العلاج الفردي فرويد الانادرا، واعتبر حالات سوء التكوين النفسي في الافراد، كأعراض الخلل الاقتصادي والاجتماعي، والثقافي للعالم المعاصر، كان غرضه مهاجمة المرض جذرياً. يتفق معظم النقاد على ان حق فرويد في الشهرة الدائرة يعتمد على اكتشافه وارتياده للعقل غير الواعي، فقارن عقل الانسان بجبل جليد ثمانية اتساعه مغمورة تحت السطح فقال ان معظم العقل مختلف داخل اللاواعي.. وتوجد تحت السطح دوافع ومشاعر، واغراض لايخفيها المرء من غيره فحسب، بل وعن نفسه ايضا، ويقول علم النفس الفرويدي ان العقل اللاواعي هو المسيطر، بينما النشاط الواعي مختصر الى مركز تابع واذ توصلنا الى فهم الاعماق الكبيرة وغير المعروفة للعقل اللاواعي، عرفنا الطبيعة الداخلية للانسان، فقال فرويد ان معظم تفكيرنا لاواع، ولايصير واعيا الا مصادفة.. والعقل اللاواعي هو مصدر الاضطرابات العصبية لان الفرد يحاول ان يزيح ذكرياته البغيضة ورغباته الباطلة الى تلك المنطقة ولكنه لاينجح الا في حفظها للمتاعب المستقبلة.
قسم فرويد النشاط الذهني للفرد على انه يحدث على ثلاثة مستويات اطلق عليها، الايد، والذات، والذات السامية، والايد ذات اهمية اولى، ويقول فرويد ان "منطقة عمل الايد هي الجزء المظلم غير الممكن الوصول اليه من شخصيتنا، والقليل الذي عرفناه عنها، عرفناه عن طريق دراسة الاحلام وتكوين اعراض الاضطرابات العصبية".
والايد هي مركز الغرائز والانفعالات البدائية، وتمتد الى الوراء، الى الماضي الحيواني، وهي حيوانية وجنسية في طبيعتها.. انها غير واعية، ويستطرد فرويد فيقول: "تحتوي الايد على كل شيء موروث وكل ما هو موجود عند الميلاد وكل ما هو ثابت في تكوين الشخص".
الايد عمياء متهورة وكل غرضها هو تحقيق رغباتها وملذاتها من دون تقدير للعواقب،وبنفس الفاظ توماس مان لاتعرف اية قيم ولا خيرا ولا شرا ولا اخلاقاً".
الطفل الحديث الولادة نموذ الايد. وبالتدريج تنمو الذات من الايد اثناء نمو الطفل، وبدلا من انه ان تكون الذات منقادة تماما بمبدأ اللذة، يحكمها مبدأ الحقيقة، تعي الذات العالم حولها مدركة وجوب كبح ميول الايد الجامحة منعا لخرق قوانين المجتمع وكما قال فرويد: ان الذات هي الوسيط بين مطالب الايد الطائشة وتحريم العالم الخارجي".. وعلى هذا تعمل الذات بمثابة رقيب على دوافع الايد وتلائمها تبعا للمواقف الحقيقية مدركة ان تحاشي العقاب او حتى صيانة النفس، قد تعتمد على مثل هذا الكبت.. وقد ينجح عن الصراع بين الذات والايد اضطرابات عصبية تؤثر على شخصية الفرد.
واخيرا، هناك العنصر الثالث للعملية الذهنية، وهو الذات السامية، التي يمكن التوسع في تعريفها بالوعي، وكتب أ.أ.بربيل وهو اعظم انصار فرويد في اميركا، كتب يقول:
"الذات السامية أرقى تطور ذهني يمكن ان يصل اليه الانسان، وتتالف من رواسب جميع المحرمات وجميع القواعد الشخصية التي يطبعها الوالدان في الطفل والبدائل الابوية.
ويتوقف الاحساس بالوعي كلية على نمو الذات السامية".
وتشبه الذات السامية الايد في كونها غير واعية، وكلتاهما في صراع دائم بينما تعمل الذات حكما بينهما. وتكمن المثل الاخلاقية وقواعد السلوك في الذات السامية.
عندما تكون الايد والذات السامية في انسجام معقول، يكون الفرد طيب المزاج سعيداً، اما اذا صرحت الذات للايد بخرق القوانين، احدثت الذات السامية قلقا واحساسا بالاثم وغيرها من مظاهر الوعي.. هناك عامل آخر قريب الشبه من الايد..اوجده فرويد، وهو نظريته عن الشهوة الجامحة، فيقول ان جميع انفعالات الايد مشحونة بصورة من "النشاط النفسي" اصطلح على تسميته، أي الشهوة الجامحة، جوهر مذهب التحليل النفسي" ويعتبر جميع ما يتعلمه المرء من ثقافة وفن وقانون ودين وغير ذلك من تطورات للشهوة الجامحة.. وبينما يشار الى هذه الشهوة بأنها نشاط جنسي.. فالواقع ان كلمة "جنسي" تستعمل في معنى واسع جداً.. فتتضمن في حالة الاطفال الحديثي الولادة اعمالا منها مص الابهام والرضاعة بالبزازة والتبرز.. وفي السنين اللاحقة، قد تنتقل الشهوة الى شخص آخر عن طريق الزواج، وتتخذ صورة انحراف جنسي، أو يعبر عنها بخلق فني أو ادبي او موسيقي – وهذه عملية تعرف باسم طالاحلال" والغريزة الجنسية في رأي فرويد، هي اعظم مصدر العمل الخلاق.
يقرر فرويد في اعظم نظريات التحليل النفسي جدلا، انه تحت تأثير الشهوة الجنسية، تنمو في الطفل احساسات جنسية نحو والديه مبتدئاً بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية بثدي امه، فتكون لدى الطفل صلة حب لمه، وعندما تتقدم به السن، ولكن في سن مبكرة تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات جنسية قوية نحو امه، بينما يقت اباه ويخافه كمنافس له.
اما الطفلة الانثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها وتقع في حب ابيها وتصر الام موضع كراهيتها. ومنافسة لها. وبتطبيق هذه النظرية على الطفل الذكر، يطلق عليها اسم "عقدة أوديب" التي اخذت اسمها من الشخصية الاسطورية الاغريقية القديمة "اوديب" الذي قتل اباه وتزوج امه.. وقال فرويد، ان عقدة اوديب موروثة عن اسلافنا البدائيين الذين قتلوا اباءهم في ثورات الغيرة..وعندما يصل الشخص الطبيعي الى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الاوديبية.. اما الافراد الضعاف فقد لاينجحون اطلاقا في قطع الصلة بالابوين، وبذا ينقادون الى سلسلة من الاضطرابات النفسية.
ومن الطرق المثمرة الاخرى، التي ابتكرها فرويد للوصول الى الصراعات والعواطف الداخلية، تحليل الاحلام، الذي كان فرويد أول من توصل اليه فقبل عصره اعتبرت الاحلام، من دون معنى أو هدف.
كان كتابه "تفسير الاحلام" اول محاولة لدراسة عملية جديدة لهذه الظاهرة.. وقد ابدى فرويد ملاحظته بعد نشر ذلك الكتاب باحدى وثلاثين عاما، "بأنه يتضمن، حتى بعد حكمي في هذا اليوم الحاضر، اعظم الاكتشافات التي ساعده الحظ في ايجادها، واكثرها قيمة". وتبعا لفرويد "يحق لنا ان نؤكد ان الحلم هو الانجاز المستمر، لرغبة مكتوبه". يمثل كل حلم دراما في العالم الداخلي "فالاحلام دائماً نتيجة صراع. وقال فرويد: والحلم هو حارس النوم".. ووظيفته مساعدة النوم، لا ازعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغبات لايمكن تحقيقها.
عالم الاحلام، حسب رأي فرويد، واقع تحت سيطرة العقل غير الواعي بالوحدة الوراثية، (الايد) والاحلام مهمة لاختصاصي التحليل النفسي، لانها تقوده الى العقل غير الواعي للمريض. وتكمن، في العقل اللاولعي، جميع الرغبات البدائية والرغبات العاطفية المكبوتة من الحياة الواعية بواسطة الذات والذات السامية. والرغبات البهيمية موجودة دائما تحت السطح، وتدفع نفسها الى الظهور في الاحلام، وحتى في النوم، تقف كل من الذات والذات السامية في موقف الحراسة كرقيبتين.
لهذا السبب كانت معاني الاحلام غير واضحة دائما، وانما يكون التعبير عنها في صورة رموز تحتاج الى خبير يفسرها.. وكرموز لايمكن اخذها حرفيا الا، بالطبع في الاحلام البسيطة للاطفال.
ويحتوي كتاب "تفسير الاحلام" امثلة عدة حللها فرويد تحليلا نفسيا.
ومن الاعمال االتعبيرية للعقل اللاواعي، اخطاء التهجمي وزلات اللسان، وحيل شاردي الذهن، ويقول فرويد "بنفس الطريقة ينتفع اخصائي التحليل النفسي من تفسير الاحلام، كما ينتفع من الزلات البسيطة الكثيرة والاخطاء التي يقوم بها الناس –التي يطلق عليها اسم افعال عارضة".. في عام ١٩٠٤، فحص فرويدذ لك الموضوع في كتابه "العلاج النفسي للحياة اليومية".
يقرر في ذلك المؤلف، "وليست هذه الظواهر وليدة المصادفة.. فلها معنى ويمكن تفسيرها.. ويقنع المرء بأن يبتخلص منها وجود انفعالات ونيات مكبوتة". فنسيان المرء لاسم ما: معناه ان يكره الشخص المسمى بذلك الاسم.. وعندما يفوت القطار شخصا يسبب التباس في جدول المواعيد.. فقد يدل ذلك على انه لايرغب في ركوبه، والزوج الذي يفقد مفتحا بيته او يشتاه، قد يكون غير سعيد في بيته ولايرغب في العودة اليه. يمكن لدراسة مثل هذه الهفوات ان تقود اختصاصي التحليل النفسي الى متاهات العقل اللاواعي.
يمكن الحصول على المنطلق نفسه من النكات التي سماها فرويد "خير صمام أمن انتجه الانسان العصلاي".. اذ من خلالها نتحرر مؤقتا من حالات الكبت التي يريدنا المجتمع المؤدب ان نخفيها.
ربما كان بسبب احساس محذر سابق، او تخلص من الاوهام متزايد، او منتهى التشاؤم، ان صار فرويد، في اواخر ايام حياته، مشغولا "بغريزة الموت".. انتهى به الامر الى اعتبار هذه الفكرة على قدم المساواة في الاهمية مع "الغريزة الجنسية".. فقرر فرويد ان هناك غريزة موت تسوق جميع المواد الحية الى العودة الى الحالة غير العضوية التي جاءت منها.
وتبعا لهذا الرأي تتجاذب المرء باستمرار قوتان: قوة الحث على الحياة وهي الغريزة الجنسية، وقوة مضادة اخرى هي الحث على الهلاك أو الابادة، وهي غريزة الموت.. وبطبيعة الحال تتغلب في النهاية غريزة الموت.. وهذه الغرزة هي المسؤولة عن الحرب وعن انواع السادية كالتعصب ضد الاجناس والطبقات والمتعة الشديدة في المحاكمات الاجرامية ومصارعة الثيران، والاعدام من دون محاكمة.
وبالاختصار كل ما سبق ذكره هو النفط الرئيسة في نظرية فرويد.. وقد انقسم علماء النفس اليوم الى معسكرين او ثلاثة معسكرات متعارضة، يؤيد البعض فرويد، ويعارضه بعض اخر، وحتى تلاميذه، عدلوا قبولهم المطلق لنظرياته في الخمسين عاما الماضية، وها هو الفريد ادلر احد اتباعه المبكرين، ينشق عن المعسكر الفرويدي لاعتقاده ان فرويد اكد الغرائز الجنسيةن اكثر من اللازم، وكمذهب بديل، اخذ ادلر يعلم ان رغبة كل انسان في اثبات تفوقه هي الينبوع الاساسي في السلوك البشري، وقد انشأ فكرة "مركب النقص" الذي يضطر الفرد الى النضال لابراز نفسه في نشاط ما، ومن مشاهير المنشقين الاخرين: كارل جونج احد موطني مدينة زيوريخ الذي حاول ايضا ان يقلل من دور الجنس، قسم جونج البشرية الى نوعين نفسانيين: احدهما مقلوب من الداخل الى الخارج، والثاني مقلوب من الظاهر الى الباطن، ولو انه ادرك ان كل فرد خليط من النوعين وعلى نقيض فرويد، اكد جونج عوامل الوراثة في تكوين الشخصية، وعلى العموم فان نقاد فرويد يخالفونه في بعض النقاط، مثل اصراره على الاهمية الاولى للاضطرابات النفسية في عهد الطفولة، واتهامه الناس بان تتحكم فيهم الغرائز البدائية الصارمة، وعلى تصعيده الشهوة الجنسية الى مركز رئيسي في تكوين الشخصية.. كذلك يخالفه البعض في اعتقاده ان التسلسل الحر للافكار طريقة لا تخطئ لارتياد العقل الباطن، مبرزين بنوع خاص، صعوبة تفسير المعلومات الناتجة عن هذه الطريقة.
تغدو الطبيعة الثورية لاستنتاجات فرويد عندما نتذكر انه كان يفحص مجالا لم يرتده احد قبله اطلاقا، وهو منطقه من العقل البشري لم ينفذ اليها احد منق بل، واعتبرت مظاهرها الواضحة غير قابلة للتفسير، او انها انحرافات فاسدة، او تجاهلها العلماء لانها تقع تحت اقوى المحرمات البشرية. ولم يدرك مجرد وجود هذا المجال – فاضطر فرويد الى فرض حقيقة وجود منطقة لاواعية بالعقل، ثم محاولة ارتيادها بالتفكك الواضح في سلسلة الاحداث العقلية الواهية.
واخيرا قررت وينفريد اوفر هولستر انه: "هناك سبب قوي الى الاعتقاد بانه بعد مئة عام منذ الان، سيعتبر فرويد في مصاف كوبرنيكوس ونيوتن، كأحد الرجال الذين فتحوا افقا جديدا من افاق الفكر.. فمن المؤكد انه في عصرنا هذا، لم يلق احد ضوءاً على اعماق عقل الانسان.. كما فعل فرويد".
قضى فرويد اخر اشهور حياته في المنفى.. فبعد احتلال النازي للنمسا، اضطر الى مغادرة فيينا في عام ١٩٣٨، فمنحته انكلترا حق اللجوء، ولكن سرطان الفم تسبب في موته في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٣٩، بعد ذلك باكثر قليلا من عام.

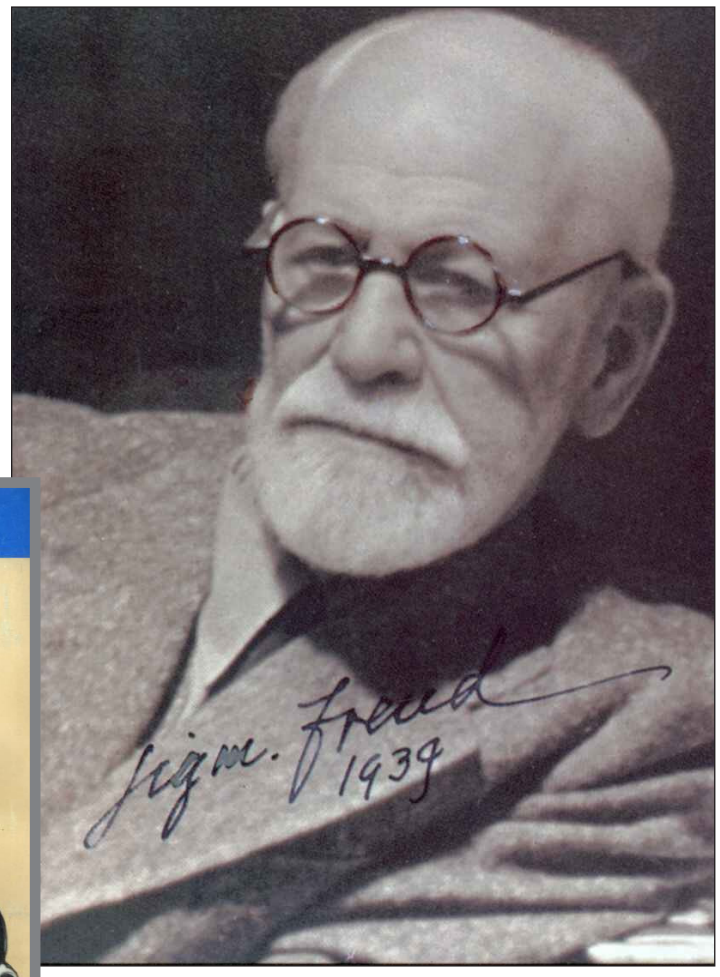

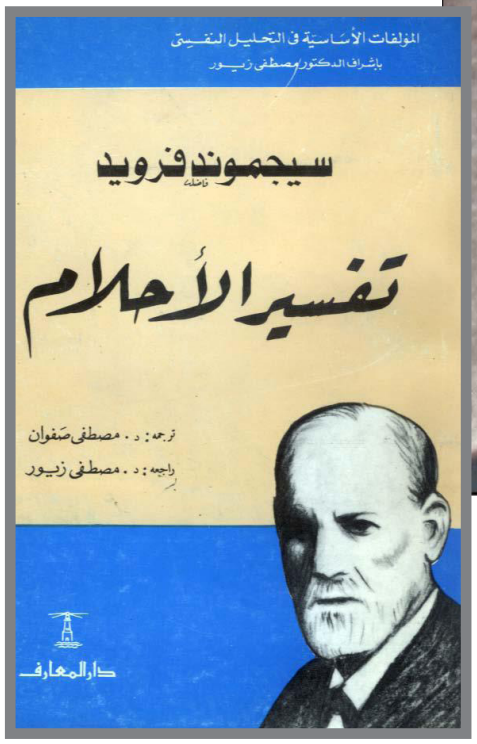

فرويـد بين الحداثة ومـا بعد الحداثة

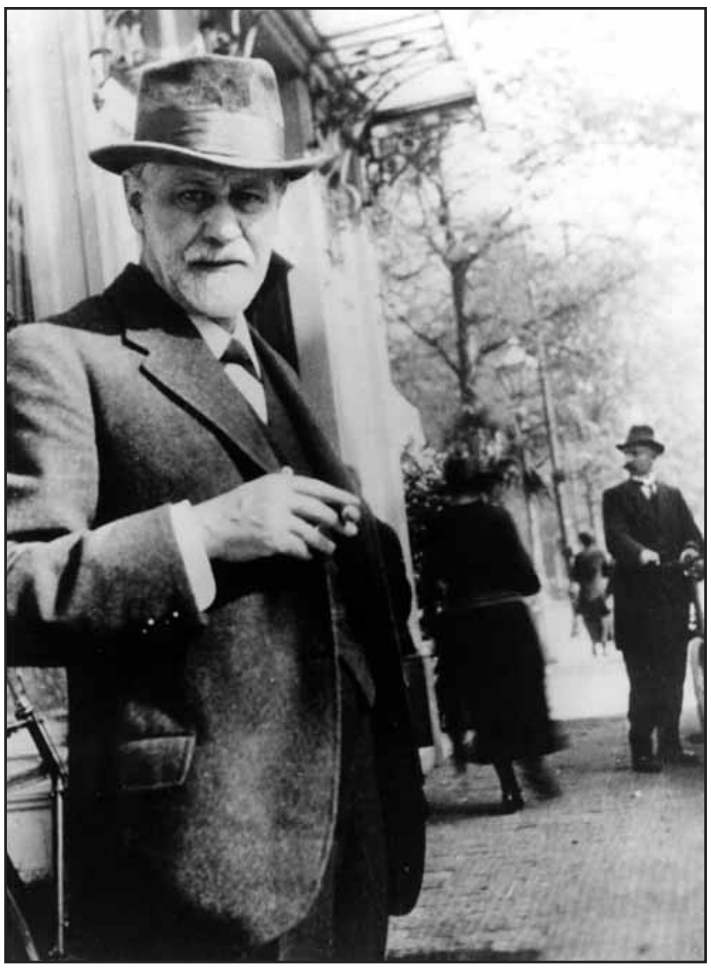

لخص فرويد تعريفه لابنته آنا حين سألته عن مفهوم التحليل النفسي ذات يوم قائلا: "هل ترين هذه المنازل بواجهاتها المختلفة، انها تشبه الكائنات البشرية، والتحليل النفسي هو الذي يغوص في اعماق هذه الكائنات كما يخترق المرء البنايات لاكتشاف دواخلها.
وفي ضوء هذا الرأي فان مهمة الطبيب النفسي ليست دفع المريض الى التنفيس او التفريغ عن تلك الرغبات المكبوته، بل الكشف عنها لاعادتها مرة اخرى الى دائرة الوعي، لكي يواجه المريض مرضه النفسي الذي فشل في حله سابقا، ويعمل جاهدا على حله من جديد وذلك باصدار حكم عقلي عليه.
وليس من الغريب ان يؤول التحليل النفسي الى نظرية تؤول الاخلاق والدين والاساطير والاخطاء العفوية، بحيث ان تأويل هذه الامور حسب مفهوم الرغبة عند فرويد، يقودنا الى حقيقة اساسية تجري على الانسان مثلما تجري على باقي الكائنات الحية.

إبراهيم الحيدري

ومع ان تفسير فرويد لا يعود في الحقيقة الى الاساس البايولوجي، بقدر ما يعود الى الاوضاع الاجتماعية والثقافية والدينية، التي صنعت النظام الابوي. البطريكي، فان نظريته ما تزال موضع اهتمام كبير. وينبع هذا الاهتمام من انه مكتشف طريقة التحليل النفسي، التي تطورت على يد تلامذته المقربين، الذين يطلق عليهم "بالفرويديين الجدد" وان اعماله العديدة وتجاربه السريرية وخبراته في التحليل النفسي ستظل تثير من دون ادنى شك كثيرا من السجال والنقد في المستقبل.
والواقع، ان من اهم مميزات فرويد كعالم نفس ومفكر وفيلسوف، انه مجدد وشجاع بتحديه النظريات التقليدية في دراسة العقل البشري والسلوك الانساني رغم الانتقادات العديدة التي وجهت الى نظريته وبخاصة نظريته في الاحلام وتلازم الكبت مع الجنس بقوة وادعاءه بكون الطفل كائن جنسي تعرض لقمع على يد ابويه، اضافة الى عقدة اوديب وعقد الاخصاء عند النساء. وغالبا ما يصطدم المرء بادعاءات تفتقر الى دليل، حيث يخلط فرويد بين المتعة بشكل عام وبين المتعة الجنسية تحديدا.

العقد النفسية: أوديب والكترا

في كتابه "التوتم والتابو" حلل فرويد العلاقة بين الابن وامه والبنت وابيها، باعتبارها علاقات حب وغيرة وتناقض بين المحرمات والمباحات وبين الرغبات الجنسية وعدم اشباعها. وقد كونت هذه العلاقات المزدوجة عقدا نفسية تاخذ شكلين اساسيين هما:
Oedipus Komplex اولا "عقدة أوديب" وهي بحسب فرويد، من اخطر العقد النفسية التي يقابلها الطفل في حياته: فالابن غالبا ما ينجذب نحو امه، او يميل نحوها ميلا جنسيا مع كره للاب والغيرة منه في ذات الوقت. ولما كانت هذه العلاقة "محرمة" لذا تتولد عنها عند الاب غيرة خفية، وكذلك تناقض تجعل الولد مزدوج الشخصية ينجذب الى ابيه وينفر من امه في ذات الوقت، وان هذا التناقض يعكس التعارض بين الحب والغيرة.
وتعود هذه الاسطورة الى اسطورة يونانية قديمة تقول بانه ولد للملك لايوس، ملك طيبة ولد. وقد تنبأ الإله أبولو بان هذا الطفل سيقتل اباه ويتزوج امه. ولم يكن بوسع ملك طيبة الا ان يتخلص من شر ابنه. وللتخلص منه سلمه الى راعي وامره بتركه على سفح جبل. ولكن الراعي لم يطاوعه قلبه فاعطاه الى راعي اخر اعطاه بدوره الى سيده ملك كورنث الذي تبناه واطلق عليه اسم اوديبوس.
عندما كبر اوديبوس وسمع بنبوءة ابولو هام على وجهه وقادته قدماه الى مدينة طيبة. وصادف ان مرت عربة الملك لايوس باوديب الهائم على وجهه، وداست عجلتها على قدمه، ثارت ثائرته وهوى على من في العربة فقتلهم جميعا من دون ان يعلم ان من في العربة هو ابوه الحقيقي.
وكانت الإلهة هيرا ارسلت الغولة سفنكس لتعاقب اهالي طيبة وملكها، غير ان اوديب حزر الغازها واسقط في يدها فالقت بنفسها من اعالي الجبل وهلكت. وردا للجميل لما قام به اوديب وانقاذ اهالي طيبة من شرور الغولة اعلنوا ان يكون اوديب ملكا عليهم وان يتزوج الملكة ايوكاستا، من دون ان يعلم انها امه. وبسبب هذه الخطيئة حل الطاعون والدمار بمدينة طيبة. وحين اكتشف اوديب انه هو من قتل اباه وتزوج امه، فقأ عينيه بدبوس وهام على وجهه. وعندما علمت الملكة امه بذلك قتلت نفسها ايضا.
ثانيا عقدة الكترا Electra Komplex وتنشأ من العلاقة العاطفية بين البنت وابيها، حيث تبدأ البنت تغار من امها وتحبها في ذات الوقت. وهكذا تنشأ ازدواجية في شخصيتها ايضا.
وتعود اصل هذه العقدة الى اسطورة يونانية قديمة تقول بان الكترا بنت اغا ممنون ملك سينا كانت قد اغرت اخاها أورستي على الانتقام من امها وعشيقها لانهما قتلا اباها اغا ممنون.
فسر فرويد هذه المأساة على انها رمز لميل الرجل الى امه، وان هذا الميل هو نزعة غريزية كامنة في الانسان. وقد استوحاها فرويد من هذه الاسطورة وعممها على الجنس البشري.
وقد دحضت هذه النظرية من قبل عدد كبير من علماء النفس المعاصرين وكذلك من قبل عدد من الانثروبولوجيين وبخاصة ما قام به الانثروبولوجي المعروف مالينوفسكي في دراسته الميدانية حول سكان جزر التروبرياند في المحيط الباسيفيكي في جنوب شرق اسيا.
في كتابه الجنس والكبت في مجتمع متوحش، (١٩٢٧) قدم نقدا لنظرية التحليل النفسي الفرويدية في تصورها كيفية تاثير مرحلة الطفولة على الشخصية. وتسائل مالينوفسكي: هل ننظر الى عقدة "اوديب" كما رآها فرويد، علما انها ظاهرة انسانية عالمية توجد في كل المجتمعات والثقافات، ام انها من نتاج شكل معين من اشكال النظم العائلية؟ وهل يمكن ان تظهر في مجتمع يسود فيه نظام القرابة الاموي؟ كما اشار مالينوفسكي الى ان دور الاب في المجتمعات، التي هي مجتمعات ابوية بطريركية، يختلف تماما عن دوره في المجتمعات الامومية.
في دراسته الميدانية لخصائص العائلة في جزر التروبرياند وتتبع نظام القرابة الامومي، وجد مالينوفسكي، ان الولد ينتسب الى امه ويصبح المولود عضوا في عشيرة الام، ولا يرتبط بعلاقة قرابية مع عشيرة الاب، ولذلك يرتبط اسمه باسم عائلتها ولا يرث الابن شيئا من ابيه بل يرث من خاله، صاحب السلطة الرئيسية في العائلة والمسؤول الاول فيها. وتليه في المركز اخته التي لها مركز اجتماعي واقتصادي مرموق من خلال ممتلكاتها الخاصة. ولذلك لا يحدث ان يشاهد الاطفال امهم وهي في حالة خضوع لزوجها.
وقد لاحظ مالينوفسكي، انه بالرغم من ان الاب يعيش في قريته، غير انه لا يهمل اطفاله، بل ويهتم بهم كثيرا ويلعب معهم. كما لاحظ بان الاطفال يتمتعون في المجتمع التقليدي بحرية كبيرة وفي جميع المجالات. فهم يعيشون في سعادة ويسود الوفاق بين الازواج ولا توجد عندهم امراض نفسية ولا عقد جنسية ولا افكار متطرفة. ويصل مالنوفسكي الى نتيجة انه ليس هناك دليل يؤيد وجود عقدة "اوديب" لانهم يتمتعون بشخصيات سوية، فلا توجد عندهم رغبات مكبوتة ولا ميول عدوانية نحو الاب، بل بالعكس فقد اظهر الابناء في بعض الاحيان مشاعر عدوانية نحو اخوالهم. وهذه الظاهرة اوصلته الى النتيجة النهائية، وهي عدم وجود عقدة "اوديب" في مجتمع التروبرياند، كما وصفها فرويد، وعلى المرء ان لا يفترض وجود مثل هذه العقدة وألا يعممها على جميع المجتمعات في العالم.
ويخلص فرويد الى ان "عقدة اوديب" تعود الى الدور التسلطي الذي يتمتع به الاب في المجتمعات الغربية، وكذلك في الثقافات التي تعتمد على التسلسل القرابي الابوي. كما يسط مالينوفسكي الضوء على حقيقة هامة اخرى، تكمن في نظرة الناس الى الجنس وتعبيرهم عنه باساليب وطرق متنوعة حسب الثقافات المختلفة، وان الجنس، ليس ظاهرة بيولوجية فحسب، وانما هي متغيرة تخضع لثقافة المجتمع.
ان توكيد فرويد الشديد على الغريزة الجنسية واعتباره مراحل النمو الجنسي والنفسي انعكاسات لقانون بيولوجي عام، انما يعكسان عدم الاهتمام بالطريقة التي تسهم بها الثقافة في العلاقات الاجتماعية.
لقد كان فرويد ابنا بارا لعصر التنوير مستكملا مسيرة النظريات التطورية، مقتبسا من الداروينية بحثها عن اسباب النشوء والارتقاء لاشكال الحياة، ومن ماركس تنقيبه عن الاسباب الحقيقية والمحركة في تشكيل الوعي الاجتماعي، كما اخذ عن نيتشه انحيازه الى تلبية الرغبات من اجل البقاء في الحياة، ساعيا الى الاخذ من كل نظرية منها جزءا ليكون من تلك الاجزاء نظرية مقننة حول السايكولوجية الانسانية التي تمرد فيها على عصر التنوير.
وبحسب فرويد، فان ثمة عالما غامضا ومخيفا يكمن في الطبقات السفلى للعقل الواعي يتشكل فيه الوعي الحقيقي للعقل البشري، المعرض الى الانفجار اذا لم تلبى الرغبات الاساسية لهذه الغرائز الدفينة الى حد الاشباع.
وقد جعل فرويد من اللاوعي عقلا غريزيا داخليا وكامنا يقابل العقل الواعي. وهو ما دفع فرويد الى تعميم هذه الظاهرة على المجتمعات والدول والامم باعتبارها ذاتا جماعية لمجموع افرادها. وقد كونت هذه الظاهرة ايضا الخلفية السياسية لنظرية اللاوعي لدى فرويد التي صاغها في مؤلفه الموسوم "قلق الحضارة"، الذي ينتج عن النزاع الدائم بين ضغوط الانا العليا التي مردها القوانين والاعراف والقيم والتقاليد التي يتوارثها المجتمع جيلا بعد جيل وبين ضغوط الانا السفلى وهي اللا وعي، الذي يختزن كما هائلا من المكبوتات. وبين الاثنين تقف ضغوط الانا الذاتية التي تحاول اقامة تسوية بين الاثنين للحفاظ على النظام الاجتماعي العام. غير ان كثيرا من الافراد لن يكن بمقدورهم الصمود طويلا وكذلك المجتمعات، على مقاومة الصراع و النزاع بين افرادها من جهة، وبين مجتمعات ومجتمعات اخرى للاسباب ذاتها.
ان نظرية فرويد لم تستطع في الحقيقة وضع حد للصراع والتناقض بين الانسان وذاته من جهة، وبينه وبين المجتمع من جهة اخرى. وهو يحذر من الازمات التي تجابه البشرية، التي لا بد وان تحدث انفجارا مدمرا على مستوى الفرد وكذلك على مستوى المجتمع. ان هذه النظرية التشاؤمية جعلت الفرويديين الجدد يستبدلون نظريته بنظريات اخرى على نمط نظريات ما بعد الحداثة

حـــــــوار مـــــع فـــرويـــد

لو أجرينا مسحاً لأهم ماكتب عن " فرويد " لوجدنا وجهات نظر تثير حدة التباين فيها دهشة الكثيرين منا. فبعض وجهات النظر اعتبرت " فرويد " ثوريا" قدم للقرن العشرين خدمات لا تقارن الا بما قدّمه " ماركس " للقرن التاسع عشر، وانه ــ فرويد ـ لا يقل خطورة عن " ماركس " نفسه. فيما ترى وجهة نظر أخرى في " فرويد " بأنه هو الشخص الذي وجّه الضربة " القاضية!" للماركسية. وتقيّم فلسفة فرويد. من احدى وجهات النظر. بكونها تشاؤمية في حين يرى آخرون في فرويد مبشّرا من نمط كارل ماركس.
ويتحمس بعضهم لفرويد لكونه ناقدا جريئا" " للأخلاق البرجوازية " وداعيا" من اجل قيم اخلاقية جديدة، فيما يصفه آخرون بأنه خير معبّر عن برجوازية فيينا في القرن العشرين، وعدّه آخرون زنديقا" هدف الى تهديم الأخلاق والدين.
ويرى آخرون بأن احدا من المفكرين منذ عهد " ارسطو " لم يوفق الى فهم الطبيعة الانسانية مثلما وفق فرويد. وأنه الباحث الذي كشف عن رحاب وانفاق مجهولة للروح البشرية، وأنه أحد أعظم المعادين لليوتوبيا في اوائل القرن العشرين، وأنه لا يوجد في العصر الحديث شخص عظيم له عقل ومزاج متطوران كما هو الحال عند فرويد. بينما يرى اتجاه مضاد بأن كل ما جاء به فرويد هو شكل من اشكال التعبير عن اللاعقلانية، وان الفرويدية معادية للتقدم الانساني لكونها ترى ان الشر الاجتماعي لا بد منه، ولأنها تعطي دورا" مطلقا" للدافع النفسي في سلوك الفرد.

قاسم حسين صالح

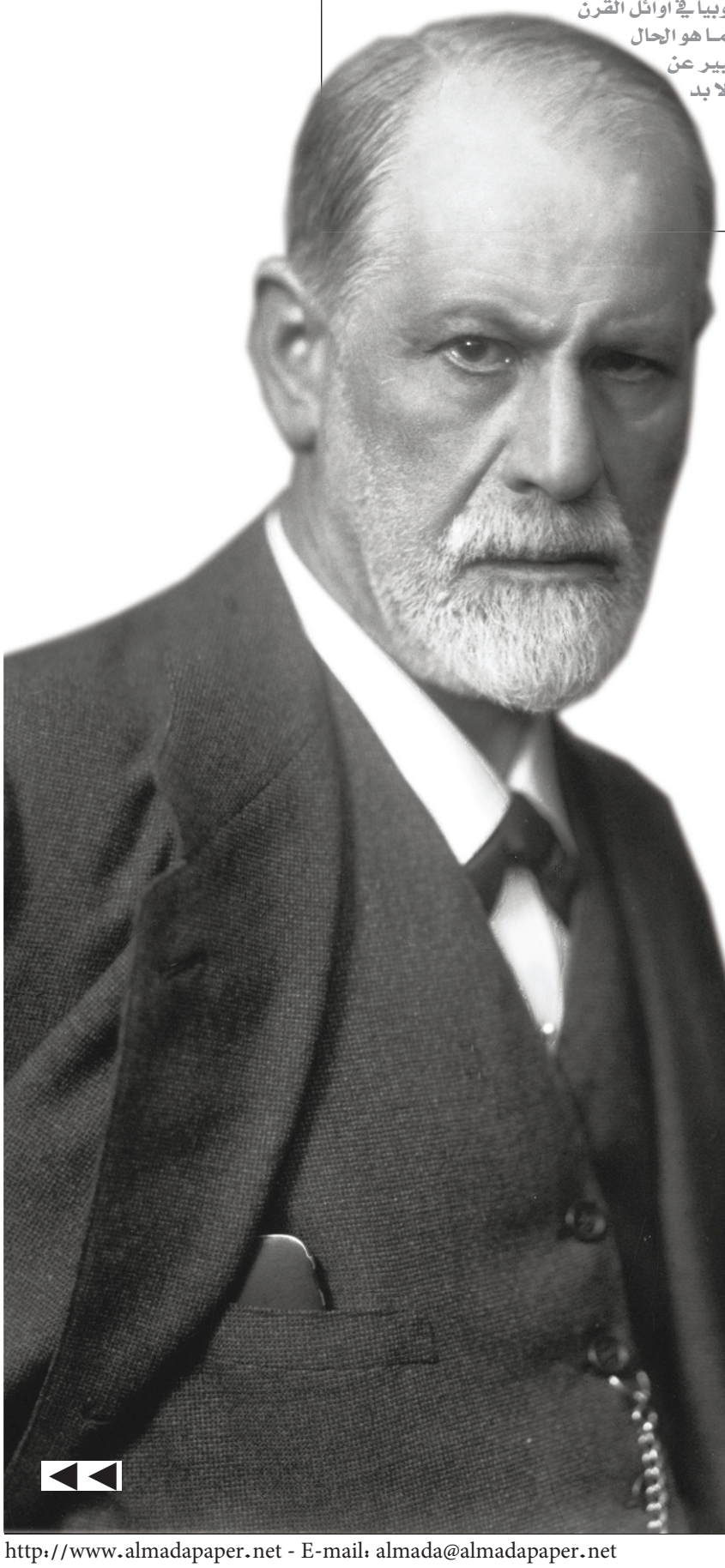

توطئة

واذا كانت مثل هذه المواقف تأتي من خارج الحركة الفرويدية فان في داخل هذه الحركة تيارات تطلق على نفسها تسميات اليسار واليمين والمحافظة، تتبادل التهم فيما بينها لدرجة ان اليمين منها يعدّ يسار الفرويدية الوجه السيكولوجي للماركسية، في الوقت الذي ترفض فيه الماركسية كل هذه الاتجاهات بوصفها مثالية.
لقد مات فرويد في (٢٣ ايلول ١٩٣٩) فهل ماتت أفكاره؟ وهل مات التحليل النفسي بعد أكثر من سبعين سنة على تأسيسه؟.
هنالك من يقول نعم ويرى أن نظريات فرويد ماتت لأنها غير علمية، بل يذهب خطوة أبعد بأن ينصح قراءة فرويد بوصفه كاتبا writer أكثر منه عالما scientist. فيما يرى آخرون أن الأمر لو كان كذلك لما لجأ كتّاب الدراما وكبار المخرجين السينمائيين الى فرويد في صياغة " شخصيات أبطال أفلامهم، وكذا يفعل الأطباء النفسانيون وجمعيات التحليل النفسي المنتشرة في عدد من دول العالم والمؤرخون والروائيون وعلماء النفس والاجتماع والتشكيليون...وأن فرويد اذا كان قد مات فأن نظرياته وأفكاره ما تزال تتنفس في حياتنا اليومية.
قلبلون عبر التاريخ الذين احدثوا تغييرا جوهريا في منظور الانسان للكون والطبيعة البشرية. غاليلو مثلا الذي صدم الكنيسة والناس بقوله ان الارض تتحرك وتدور وليست ثابتة.وكوبنيكوس الذي أحدث تغييرا هائلا في منظورنا للكون بنظريته الانقلابية بأن الأرض ليست هي مركز الكون. وداروين في نظريته بأن الانسان هو نتاج عملية تطور الحيوانات الدنيا. وكذا فعل فرويد بأن غيّر الصورة التي نحملها بخصوص أنفسنا بقوله، ان خبرة الانسان وأفكاره وشعوره وأفعاله ناجمة ليس فقط عن الشعور العقلاني انما عن قوى غير عقلانية خارج درايتنا وسيطرتنا.
ان الفكر العربي لم يحسم الموقف بعد من الفرويدية كما جرى في بعض الجامعات الاوربية التي ادخلت مادة التحليل النفسي دراسة وتطبيقا، أو كما هو الحال في " الاتحاد السوفيتي " سابقا" الذي منع دخول كتابات فرويد منذ ثلاثينيات القرن العشرين.
وبصرف النظر عن صواب أو عدم صواب هذا الموقف أو ذاك، فان الحقيقة التي تفرض نفسها هي ان القارىء العربي به حاجة الى الاطلاع على مزيد من النقد الموضوعي لنظرية فرويد،ومعرفة أي الأفكار منها ما تزال صادقة وأي منها كانت صادقة على الثقافة الأوربية في زمانه ولم تعد كذلك في زمان آخر وثقافات أخرى، وهذا " البحث " مساهمة على هذا الطريق، ارتأينا ان يتضمن الجانب الاول منه حوارا" يهدف الى توضيح اساسيات نظرية فرويد وافكاره، وانطلقنا في طرحنا للاسئلة من افتراض أننا لو وجهناها الى فرويد نفسه لحصلنا على نفس أساسيات الاجابات التي استقيناها من كتاباته هو وليس مما كتب عنه، وقليل منها اجتهدنا في اجاباتها ولا نظن فرويد يعترض عليها.

■ لنبدأ القسم الأول من حوارنا بأسئلة تقليدية عن حياتك الشخصية والعلمية.
فرويد:
– ولدت في السادس من مايس عام ١٨٥٦ في فريبرج بمورافيا، تلك المدينة الصغيرة التي توجد فيما يعرف (تشيكوسلوفاكيا). وفي السنة الرابعة من عمري نزحت الى فيينا وهناك تلقيت كل تعليمي متعطشا للعلوم الانسانية. وكان لمعرفتي بقصص الكتاب المقدّس أثر دائم في توجيه اهتمامي. وأردت أن أدرس القانون وأن أكرّس حياتي للشؤون الاجتماعية، غير أن نظرية دارون اجتذبتني اليها بقوة لما كانت تبشّر به في فهم الكون. وأذكر أن استماعي الى مقال (جوته) الممتع عن الطبيعة قبيل تخرجي من المدرسة، هو الذي جعلني أقرر أن أدرس الطب. وعند التحاقي بالجامعة عام ١٨٧٣ اكتشفت: (سدى تجول في دروب العلم لا يتعلم الانسان غير ما يستطيع تعلمه).

■ هذا يعني انك لم تكن ميالا لدراسة الطب.
فرويد:
– نعم لم اكن في ذلك الوقت، وفي أي وقت أخر، أشعر بميل خاص الى مهنة الطب ما عدا الطب النفسي. ولهذا كنت اتابع دراستي الطبية بأهمال كبير فحصلت على شهادة الدكتوراه في الطب في وقت متأخر وذلك في عام ١٨٨١. وبعدها بعام التحقت طبيبا" تحت التمرين في المستشفى العام، ثم رقيت الى وظيفة طبيب مقيم. وخلال الاعوام التالية . وبينما كنت ما ازال اعمل طبيبا" مقيما"متخصصا في النيورولجي . نشرت عددا من المشاهدات الاكلينيكية بخصوص ما يلحق بالجهاز العصبي من اصابات عضوية. واخذت خبرتي تزداد حتى صار بوسعي ان احدد موضع أصابة ما في النخاع المستطيل تحديدا" كان من الدقة بحيث لم يعد بوسع المشرح الباثولوجي ان يضيف شيئا" شخصته التهاب اعصاب حاد.

■ ولابد انها كانت سببا" في بدايات شهرتك.

فرويد:

– لدرجة أنه اقبل عليّ سيل من الأطباء الامريكيين كنت احاضرهم ولم اكن أفهم شيئا" عن الأمراض العصبية. حتى أنني عرضت ذات مرّة على جمهور الحاضرين حالة مريض عصابي يشكو من صداع دائم بوصفها حالة التهاب سحائي موضعي مزمن. وعن حق ثار الجميع ضدي وانفضّوا من حولي، وكان ذلك خاتمة النشاط التعليمي الذي اضطلعت به قبل الآوان.

■ نعلم أنك في عام ١٨٨٥ منحت مكافأه مالية كبيرة في اجازة دراسية الى باريس، وانك تعرفت هناك على الطبيب المشهور (شاركو)، فما الجديد الذي تعلمته من شاركو وباريس؟.

فرويد:

– اكثر الأشياء تاثيرا" في نفسي خلال المدة التي قضيتها مع شاركو هي أخر بحوثه في الهستيريا. وقد شاهدته يجري بعض تلك البحوث، منها أنه اثبت أن الأعراض الهستيرية تنتظمها وقائع قوانين (ادخلوا فالألهة هنا). كما اثبت كثرة اصابة الرجال بالهستيريا، وهذا خلاف الاعتقاد الشائع انذاك باقتصار الهستيريا على النساء، واستطاع أيضا" احداث الشلل والتقلصات الهستيرية بواسطة الايحاء التنويمي. ولا شك ان ما تعلمناه من شاركو في ذلك الحين لم يعد كله اليوم صحيحا".

■ بعد عودتك الى فيينا عام ١٨٨٦وزواجك من مارتا برنايس التي بقيت في انتظارك اكثر من اربعة اعوام،واصبحت اخصائيا في الأمراض العصبية، تعرفت الى الدكتور (جوزيف بروير)الذي كان من اطباء الأسر المرموقين في فيينا،وكان ذا ماض علمي وشهرة وذكاء وقادكما تصفه أنت،وقد نشرت بالاشتراك معه كتابكما (دراسات في الهستريا) ولكنك خسرت صداقته وانفصلت عنه بسبب اختلافكما في تفسير الهستريا..فما هو هذا الاختلاف؟.

فرويد:

– كان (بروير) يفضّل أن ننحو في تفسير الهستريا منحى فسيولوجيا اذ كان يرى العمليات التي لم توفق الى مصير سوي انما نشأت ابان احوال نفسية غير عادية شبيهة بحالة التنويم. اما أنا فكنت أميل الى الاعتقاد بوجود قوى تتفاعل فيما بينها، ونوايا وميول تعمل على نحو ما يحدث في الحياة العادية. وهكذا تتعارض نظرية بروير " الهستيريا التنويمية " مع نظريتي " العصاب الدفاعي ".

■ أشرت الى العصاب الدفاعي، فكيف تفسّر العصاب؟ هل تراه اضطرابا انفعاليا، نفسيا، فسيولوجيا..أم ماذا؟.

فرويد:

– ان ما يعتمل خلف مظاهر العصاب ليس اضطرابا انفعاليا انما هو دائما اضصراب ذو طابع جنسي، سواء كان صراعا جنسيا حاليا أم نتيجة خبرات جنسية مبكرة.

■ الا ترى أنك بردّك الهستريا الى دوافع جنسية تعود الى بدايات الطب، الى (افلاطون) الذي قرر أن الطب هو العلم بألوان الحب والرغبات الجسدية؟.

فرويد:

– لقد اشرت صراحة الى تأثري بذلك. وقد تجاوزت مجال الهستريا وشرعت في فحص الحياة الجنسية لدى المرضى بما يسمى النيوروستنيا الذين يفدون الى عيادتي زرافات زرافات. وهكذا توصلت الى اعتبار العصاب دون استثناء اضطرابات للوظيفة لجنسية، وما يدعى العصاب الفعلي هو المظهر المباشر لحالة التسمم الناتة من هذه الاضطرابات، في حين أن العصاب النفسي هو مظهرها النفسي، وقد طابت هذه النتيجة لضميري العلمي، وآمل أن أكون ملئت بذلك فراغا في العلم الطبي. وأريد – حتى لا يساء فهمي – أن أقرر أنني لا أنكر وجود الصراع النفسي والعقد العصابية في النيوراستينا، فكل ما هنالك أنني أرى أن أعراض اولئك المرضى لا تنشأ عن سبب نفسي، كما أنها لا تزول بالتحليل. ولكن لا بد أن تعدّ تسمما نجم مباشرة عن اختلال في العمليات الكيمائية الجنسية، ولم يبق الا أن أصوغ ما لاحظته في اعتبارات، وبذلك وصلت الى نظريتي في الكبت.

■ يعني الكبت وفقا لنظريتك: معلومات غير مسّرة unpleasent تدفع الى اللاشعور من غير ان نكون دارين بها، وتصفها بأنها الآلية الدفاعية الأعظم قوة التي تقوم بدفع طلبات الهو id غير المقبولة الى العقل اللاواعي. فهل يعني هذا أنك الأول الذي توصل الى معرفة " الكبت " بالصيغة التي طرحتها؟.

فرويد:

– بالتأكيد.فلقد كانت عملية الكبت ابتكارا" لم يعرف له مثيل من قبل في الحياة النفسية. واصبحت نظرية الكبت الحجر الاساسي في فهمنا للعصاب. واصبح لزاما" علينا ان نغير نظرتنا لمهمة العلاج، بل ان يكشف عن عمليات الكبت ويستعيض عنها بعمليات حكمة عقلية قد تنتهي اما بقبول ما نبذ من قبل او بادانته. وقد اعربت عن اتخاذي هذا الاتجاه الجديد باقلاعي عن تسمية طريقتي في الفحص والعلاج تطهيرا" واسميتها بدلا من ذلك التحليل النفسي.

الجنس والعدوان

■ يمكن أن نوجز نظريتك في التحليل النفسي بأنها تحاول تفسير الشخصية والدافعية والاضطرابات النفسية بالتركيز على تاثير خبرات الطفولة المبكرة في الطريقة التي يتعامل بها الانسان مع ما بداخله من الحاحات جنسية وعدوانية حين يصبح راشدا..صح؟

فرويد: صح

■ لكنك في هذا تلغي تماما امكانية تأثير الخبرات اللاحقة في الأحداث السابقة، فحكمت على الانسان أن يبقى أسير طفولته حتى لو بلغ التسعين.

فرويد:

– ذلك ما اثبتته كشوفاتي التي أجريتها على الراشدين.

■ وهؤلاء الراشدين ياسيدي هم من المرضى وليسوا من الأسوياء، ومن يدري أن يكون بينهم – ومعظمهم من نساء الطبقة البورجوازية – يقول لك ما تحب ان تسمعه متأثرا بارائك.

فرويد:

– وهل أنا من السذاجة بحيث ينطلي عليّ مثل هذا؟!

■ عفوا سيدي.لكن التحليل النفسي عندك يعني: تقنية أو تكنيك علاجي لتحليل الأفكار الموجودة في اللاشعور، صح؟

فرويد: صح

■ وهنالك من يرى أن التحليل النفسي يفتقر الى الدليل العلمي الذي يؤيد صحته،

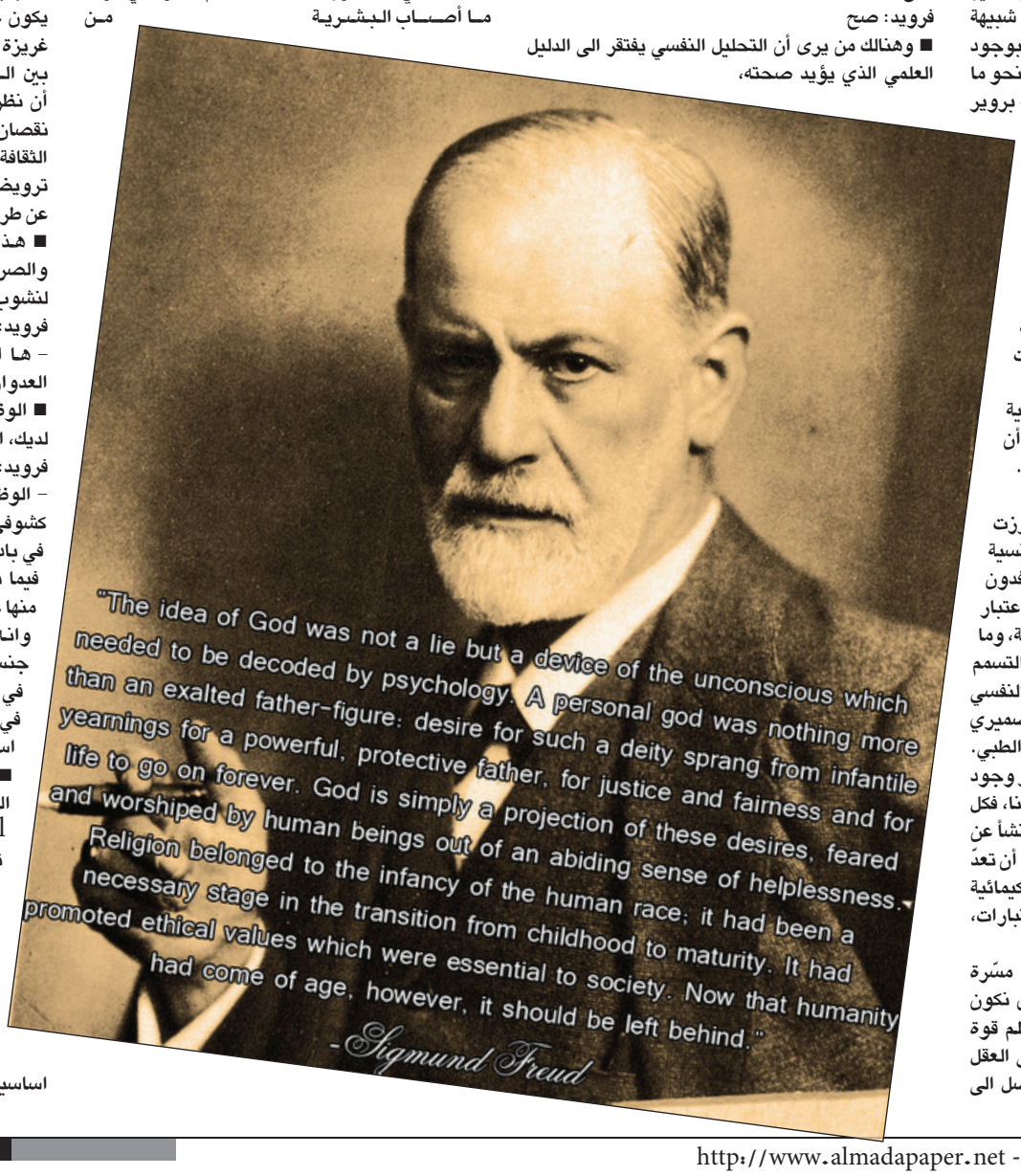

بمعنى أن الوسيلة غير علمية وبالتالي فأن النتيجة التي تصل اليها غير علمية.

فرويد: هل هذا رأيك؟

■ أنا محاور وعليّ أن اكون محايدا أولا، وأن أمثّل رأي المغيبين ثانيا الذين يرون أن التحليل النفسي قد مات، ورأي في جنابك أن سعة صدرك تتحمل حتى اسئلة من هم ضدك.

فرويد:

– أنا أعتقد، بل تأكد لي عن طريق علاج مئات المرضى، أن جذور كل المشكلات النفسية هي صراعات لاشعورية بين (الهو id والأنا ego والأنا الأعلى superego). وللتوضيح،فان الصراعات بين هذه القوى الثلاث المتنافسة أمر عادي، ولكنها تتحول من الأمر العادي الى مشكلات اذا أصبحت خارج السيطرة. فاذا وجّه الأنا والأنا الأعلى الكثير من طاقتهما لكبح الرغبات الانانية للهو وانشغلا بوضعها تحت السيطرة، واذا كانت هذه الكوابح ضعيفة وقام الهو بالتهديد بتجاوزها..نجم عنها الاضطراب النفسي.وللتخلص من هذا الاضطراب فان الحل يكون بأن نأتي بالصراعات اللاشعورية ونضعها على مستوى الشعور، وتلك هي مهمة التحليل النفسي، وعلى من يشك بصحته أن يجرّبه شرط أن يكون قد تدّرب عليه.

■ دكتور فرويد، المشكلة لديك أن الفكرة المركزية في نظريتك تقوم على أهمية العمليات اللاشعورية. فأنت تقول بأن معظم ما نفعله لا نكون على دراية به، وأن سلوكنا محكوم بما يحتويه لاشعورنا فتلغي بذلك دور الوعي. ثم أن كل نظريتك تقوم على مبدأ الحتمية النفسية في قولك الصريح بأن كل الأفكار والانفعالات والافعال ناجمة عن أسباب نفسية. ماذا لو خففتها يادكتور كأن تقول ان للاشعور دورا في تحديد ما نفعله وأن للحتمية النفسية دورا مشاركا في حتميات أخرى تعمل معا في تشكيل شخصياتنا وسلوكنا.

فرويد:

– أنت تطرح اكثر من سؤال ومع ذلك أجيبك.

ان اكتشافي للاشعور أعدّه من أعظم كشوفاتي، وأن ما أصاب البشرية من كوارث وما يصيب الانسان من كدر هو أنها ظلت آلاف السنين تنظر الى العقل كما لو كان يساوي الوعي فقط، فكان جهلنا باللاشعور سبب مأسينا.ثم أن الدور المركزي للاشعور ما كان قولا من على مكتبي بل أثبتّه عمليا، ومن يريد أن يتأكد عليه بتحليل نفسه ان كان يمتلك المهارة. وأظن أن اكتشافي للاشعور فتح بابا جديدا للتأمل في الحياة العقلية. وبالمناسبة، ان كنت تريد ادلة عملية عليك بمراجعة الفن السوريالي في الرسم والأدب والسينما. أما عن الحتمية النفسية فأنا مازلت مؤمنا بها وأرى في الحتميات الأخرى ما هي الا توابع لها.

■ مع أن شكسبير كان قد سبقك في اكتشاف اللاشعور وضمّن تأثير العقل اللاواعي في العديد من مسرحياته، غير أننا نعترف بأنك أنت الذي اعطيت العمليات اللاشعورية الأهمية الجوهرية في الحياة اليومية لدى الانسان العادي من قبيل النسيان وزلات اللسان والنكتة التي وصفتها بأنها وسائل تستخدم لخفض التوتر النفسي واشباع دوافع خفية " النكته مثلا تنفيس عن عدوان"، لكنك حددت محتوى اللاشعور بدافعين فقط اختزلت بهما سلوك الانسان هما الجنس والعدوان، وتفترض أن كل الحيوانات بضمنها الانسان تولد ولديها غريزة العدوان، وان هذه الغريزة –على ماترى – تخلق دافعا للقيام بالعدوان لأشباعها، بمعنى: انها تخلق ضغوطا تجبر الانسان على أن يقوم بالعدوان بطريقة ما فالغيت بذلك دور العلم والثقافة والتمدن وصورت لنا الانسان بأنه لا يختلف عن الحيوان من حيث تحكّم القوى البيولوجية في سلوكه ان لم يكن أشد ضراوة منها، وأنه – وفقا لطروحاتك – ليس سيد عقله.

فرويد:

– العدوان سلوك بيولوجي لدى كل من الحيوان والانسان. هذه حقيقة واقعة يمكنك التأكد منها بمراقبتك سلوك الديكة في المسابقات! وملاحظتك سلوك الأطفال. فالغضب يظهر على سلوك الطفل قبل ان يكون عمره سنة، ولاحظ العدوان الجسدي لدى الأطفال كيف يضرب بعضهم بعضا وهم بعمر سنتين. وتشير الملاحظة التتبعية أن الطفل العدواني بعمر ست او سبع سنوات يكون عدوانيا حين يصبح راشدا. ولو لم يكن العدوان غريزة بيولوجية لما تقاتل الناس ولما نشبت الحروب بين الدول. وسيأتي يوم يثبت لكم فيه التقدم العلمي أن نظريتي صحيحة، بل يثبت لكم ايضا أن زيادة او نقصان هرمون معين يفضي الى العدوان. اما عن دور الثقافة والتعلم والتحضر فان أفضل ما تستطيع عمله هو ترويض العدوان وليس السيطرة عليه وتفريغ شحناته عن طريق نشاطات مشروعة كالرياضة مثلا.

■ هذا يعني ان نظرية ماركس في الصراع الطبقي والصراع على المصالح ودافع السيطرة ليست اسبابا لنشوب الحروب بين الدول على رأيك؟

فرويد:

– ها انت ذكرت دافع السيطرة الذي اساسه غريزة العدوان، اما الأسباب الأخرى فتمّثل رأي أصحابها.

■ الوظيفة الجنسية عند الاطفال، هل هي متغير فرضي لديك، ام انك اهتديت اليها علميا"؟

فرويد:

– الوظيفة الجنسية موجودة منذ بدء حياة الفرد. وان كشوفي المستغربة في الجنسية لدى الاطفال وصلت اليها في بادىء الامر عن طريق تحليل الراشدين، ولكن امكن فيما بعد (منذ حوالي سنة ١٩٠٨ وما بعدها) التحقق منها على اتم واوفى وجه بالملاحظات المباشرة للاطفال. وانه لمن اليسير حقا" ان يقتنع المرء بوجود نشاط جنسي مطرد لدى الاطفال حتى لا يسعه ان يتساءل في دهشة: كيف استطاع الجنس البشري ان ينجح في اغفال الحقائق واعتناق الاسطورة المستحبة، اسطورة لا جنسية الطفولة ذلك الزمن؟.

■ نظريتك في الشخصية، ومازلنا في موضوع الجنس ايضا، هي نظرية نمائية او تكوينية developmental. فأنت ترى ان شخصياتنا تتشكل عبر مرورنا بمراحل نمو تكويني اسميتها النمو النفسي الجنسي: من مرحلة الرضاعة وصولا الى مرحلة الرشد، في كل واحدة منها تكون الدافعية الجنسية للطفل هي اشباع دافع اللذة من مناطق جسمية متنوعة تتمثل في:الفم بمرحلة الرضاعة، والشرج بالمرحلة الشرجية، والاعضاء التناسلية بالمرحلة القضيبية. وسؤالي: لماذا حددت هذه المراحل بثلاث اساسيات برغم انك لم تدرس الاطفال، وانك الغيت تأثير

الاحداث اللاحقة في الخبرات السابقة؟.

فرويد:

– هذه استنتاجاتي من معاينتي لمرضاي وتحليلي لمشاكلهم واضطراباتهم النفسية.

■ سيدي، أنت تذهب خطوة أبعد بقولك ان خصائص أو سمات شخصية الانسان الراشد تشتق من هذه المراحل الثلاث للنمو النفسي الجنسي وكأن التعلم والخبرة والثقافة لا تستطيع حتى تعديل ما حصل في الطفولة.

فرويد:

– الجواب نعم في حالة الشخصية غير السوية، لأن تقصّي أسباب اضطراباتها النفسية يكمن في واحدة من تلك المراحل.

■ وماذا بخصوص مفهوم التثبيت fixation الذي تقصد به بقاء جوانب من شخصية الراشد متجمدة على مرحلة من هذه المراحل مرّ بها "الهو" بخبرة معينة؟

فرويد: صحيحة تماما.

■ على رأيك فأن الطفل المنشغل في مرحلة الرضاعة بمص ثدي أمّه بكثرة وحصل له تثبيت،فأنه يظهر عليه في الرشد بسلوك آخر كأن يكون التدخين مثلا عند الرجال وأكل (الموطة أم العودة) عند البنات، ليعوض مص السيجارة ومص الآيس كريم أبو العودة عن مص الثدي، صح؟

فرويد: صح

■ وبما انك مدمن على تدخين " البايب" الذي لا تستطيع ان تتخلى عنه برغم ان التدخين سبب لك سرطان الفك، فهذا يعني انك كنت تمص ثدي امك كثيرا ولديك تثبيت، ولا يمكنك استثناء نفسك من " حقيقة " أنت عممتها على كل الناس، وسؤالي: لماذا اخترت "البايب" بالذات؟

فرويد:

– "يضحك". سؤالك لا يخلو من خباثة ولكن لا تظن بي سوءا

أحلام دافنشي ودستوفسكي

■ لنطرق باب الأحلام الذي فتحته عام ١٩٠٠ بأضخم مؤلف عنها في كتابك (تفسير الأحلام) الذي توصلت فيه الى نظرية خلاصتها أنها (الأحلام) عملية يقوم بها اللاشعور لاشباع ما بداخله من دوافع مكبوتة...

فرويد:

– صحيح، لكن مضافا الى كونها تحقيق(مقنّع) لرغبة (مكبوتة) فانها – كأي عرض عصابي . محاولة توفيق بين مطالب دافع مكبوت وبين مقاومة تبذلها الرقابة في الذات. وبعبارة سهلة:اللاشعور يحاول ان يشبع في الاحلام الحاجات التي لا يمكن التعبير عنها او اشباعها في حالة اليقظة.

■ هنا لديّ اشكاليتان، الأولى تأكيد جنابك ان الاحلام تتضمن ذكريات من مرحلة الرضاعة وخبرات الطفولة المبكرة لاسيما الاحداث المرتبطة بالوالدين،وأن مضمونها جنسي خالص..فكيف اهتديت الى حكم قاطع يبدو لكثيرين ليس فيه منطق؟.

فرويد:

– دعني اقولها بالصريح: ما من غريزة لقيت منذ الطفولة مثل الكبت الذي لقيته الغريزة الجنسية.وما من غريزة مثلها خلّفت وراءها رغبات على هذا المدار من الكثرة والقوة تعمل على احداث الحلم في حالة النوم. ولأنني أعدّ الاحلام افعالا نفسية لها من المعنى مثل ما لغيرها، وأن النزعة المكبوتة تسعى الى الاشباع حين لا تكون عليها رقابة، فأنني علي يقين بأن معظم أحلام الراشدين، ولم أقل كلها، تتضمن خبرات تعود الى الطفولة ولها علاقة بالجنس،وأنها تبدو واضحة لمثلي لدى الاشخاص المحرومين جنسيا. واؤكد لقرائك بأنه كلما زاد المرء اشتغالا بحل مشكلة الأحلام زاد استعداده للتسليم بأن غالبية احلام الراشدين تعالج مادة جنسية وتعبّر عن رغبات عشقية.

■ الاشكالية الثانية قولك ان للحلم معنى ظاهري سطحي وظيفته تشويه او اخفاء المعنى الحقيقي للحلم، ومعنى خفي تكمن فيه حقيقة الحلم..

فرويد:

– صح ولا اشكال في ذلك

■ الاشكالية في التفسير ياسيدي، فالشخص الذي يرى في حلمه افعى وربطة عنق، وآخر يرى في حلمه ملكا او رئيسا، فانك تنظر الى هذه الرموز بوصفها المعنى الظاهري، اما معناها الحقيقي – على ما ترى جنابك – فان الأفعى وربطة العنق يرمزان الى الأعضاء التناسلية الذكرية، فيما يرمز الملك او الرئيس الى الأب او المعالج النفسي، الا ترى في ذلك تأويلا تريده ينسجم مع نظريتك؟

فرويد:

– ان الرغبة المكبوتة أشبه بمجرم أودع في السجن، ولأنه محرّم عليها أن تظهر نفسها للناس فقد دفع بها " الأنا " الى مخزن اللاشعور. وعندما ينام الرقيب، او الحارس الذي يقف على باب اللاشعور فان الفرصة تتاح للرغبة المكبوتة ان تظهر على مستوى الشعور في حالة ينطبق عليها مثل لديكم يقول: (اذا غاب القط ألعب يافار). ولكي لا توقظ سجّانها (الأنا) فان عليها أن تتخفى بالظهور لتظل تسرح في الحلم وتمرح على سطح الوعي وتشبع حاجتها ولو في الخيال، ولهذا أكرر القول بأن الأحلام اشباع لرغبات مكبوتة.

■ أفهم من ذلك أنني اذا قلت لمراجع يأتيني: قل لي أحلامك أقول لك من أنت، صحيحة وفقا لنظريتك.

فرويد:

– الى حد كبير، شرط ان تكون ماهرا في التحليل النفسي وقادرا على استجلاء المعنى الخفي للأحلام.

■ قبل ان نتقدم خطوة اخرى، نستخلص من حديثك بان نظريات المقاومة والكبت واللاشعور، وقيمة الحياة الجنسية في تعليل المرض، واهمية الخبرات في مرحلة الطفولة، هي العناصر الاساسية التي يتكون منها بناء التحليل النفسي.

فرويد:

– صحيح تماما"، مع ملاحظة أن المعالج النفسي يشبه في عمله التحرّي detective الذكي الذي يجد دليلا صغيرا يبدو للآخرين تافها لكنه بمهارته يوصله الى الحقيقة، ومهارة المعالج النفسي تكمن في قدرته على استعمال وسائل التحليل النفسي المتمثلة بالتداعي الحر وتحليل كل من الاحلام والازاحة، أعني بالازاحة نقل او ترحيل الانفعال من موضوعه الاصلي الى موضوع آخر كأن يكون المريض يكره اباه فيحوّل كرهه الى المعالج النفسي، او تحب أباها فتتعلق عاطفيا بمعالجها النفسي، وأعني بالمقاومة الاستراتيجيات اللاشعورية التي يستخدمها المريض لمنع المعالج النفسي من فهم مشكلته او عقدته النفسية.

■ تقول في كتابك (الجنس) ما نصه:

يظهر لي ان النمو الحالي للجنس البشري لا يحتاج الى اي تفسير يغاير ما ينطبق على الحيوان. فان ما يظهر في اقلية من الافراد كحافز قلق لمزيد من الكمال يمكن فهمه كنتيجة لغرائز فاشلة بني عليها اسمى ما في الثقافة البشرية من قيم. فما هو رأيك بالابداع الفني؟

فرويد:

– ان التسامي Sublimation هو العملية المؤدية مباشرة الى الابداع الفني. فحين يتعذر الاشباع الكامل للرغبات الجنسية في الحياة الواقعية يتحول مجرى الطاقة الى نشاطات اخرى هي عمليات الخلق والابداع الفني في حالة الفنانين. والتسامي يختلف عن كل الآليات او الحيل الدفاعية من حيث أنه عملية بنائية، ولأن وظيفته تتعدى حدود حماية الأنا. ففي التسامي يجري تحويل دوافع غير مقبولة اجتماعيا وأخلاقيا الى أشياء أو موضوعات مفيدة للمجتمع. وعن طريقه يتم الحصول على اشباع من بدائل مفيدة اجتماعيا عندما يحال بين دوافع قسرية او غير مقبولة وبين اهدافها او موضوعاتها الفعلية. فالشخص الذي تتملكه دوافع عدوانية ضد الناس، فهو بدلا من أن يوجهها فعلا ضدهم فأنه يحولّها الى عمل روائي (رواية، قصة) او عمل موسيقي او فيلم سينمائي او لوحة فنية...وعليه فأنني افترضت بأن معظم أعمال فناني عصر النهضة، لاسيما منحوتاتهم الجميلة لأجساد عارية من الرجال والنساء، هي نتاج لتصعيد دوافعهم الجنسية. بل أنني أنظر الى الحضارة نفسها على أنها نتاج الاف السنين من التسامي.

■ لا ادري لماذا تستهويك أحكام كبيرة وقاطعة اترك أمرها لقرائك، ولكنني فهمت. تأسيسا" على وجهة نظرك. ان الفنان يبدو لجنابك كالعصابي أو مريض نفسيا.

فرويد:

– نعم من حيث انسحابه من واقع لا يرضيه الى دنيا الخيال، لكنه يختلف عن العصابي بكونه يعرف كيف يقفل منه راجعا" ليجد مقاما" راسخا" في الواقع. ومنتجاته، اعني الاعمال الفنية، اشباع خيالي لرغبات لاشعورية شأنها شأن الاحلام، وهي مثلها محاولات توفيقية تتفادى اي صراع مكشوف مع قوى الكبت. ولكنها تختلف عن منتجات الحلم النرجسية من حيث ان المقصود بها اثارة اهتمام الغير وان بوسعها ان تستثير وترضي فيهم بدورهم الرغبات اللاشعورية نفسها. وزيادة على ذلك فهي تستفيد من اللذة الحسية للجمال الشكلي بوصفها (جائزة مغرية) وان ما يفعله التحليل النفسي هو ان يأخذ العلاقات المتبادلة بين ما تأثر به الفنان في حياته وخبراته ومنتجاته، ويستخلص منها نفسيته وما يعتمل فيها من دوافع.

■ في العام ١٩٠٨ تفحصت حياة دافينشي وأعماله الفنية وتوصلت الى أن دافينشي كان رجلا يعاني من كف جنسي متطرف ناجم عن الشعور بقلق الاخصاء، وتعني به خوفه من عقاب أبيه على رغبته الجنسية نحو أمه بقطع عضوه الذكري، وأنه قام بتحويل مجرى الطاقة الجنسية لديه نحو انتاج لوحات فنية مميزة لاسيما لوحته الموناليزا، وفسّرت ابتسامتها الغامضة بأنها ابتسامة والدة دافينشي، فكم أنت على يقين من استنتاجك هذا؟.

فرويد:

– أنا أرى أن الأعمال الفنية الابداعية اشباع لرغبات محجوزة في اللاشعور لكونها غير مقبولة أخلاقيا واجتماعيا،وانها بارتقائها الى مستوى الابداع تنجح في التحايل على تجاوز القيود التي تمنعها من التصريح بها بشكل مكشوف، ولو لم أكن على يقين لما نشرت ذلك.

■ انسجاما" مع نفس المنطق، فانك تعتبر طفولة " دافينشي " ذات الطابع الشبقي هي العوامل المحددة لسلوكه. فما فشل " ليوناردو دافينشي " في تكوين علاقات عاطفية ناضجة، والجنسية المثلية عنده، وابتسامة الموناليزا، واتحاد الانوية والذكورة في لوحة يوحنا المعمدان، وانشغاله في محاولاته الفنية المبكرة بتصوير رؤوس نساء باسمات، الا . من وجهة نظرك . كون دافينشي كان اسير ابتسامة امه وانوثتها التي انفصل عنها في سن مبكرة.

فرويد:

– يقول (موتر) عن (دافينشي):

لقد رسم (ليوناردو من الجراد آكل الانجيل، باخوس ابولو، الذي ينظر الينا بأبتسامته الغامضة على شفتيه وبساقيه المتقاطعتين الناعمتين ـ بعينين ساحرتين) ان هذه لصور تنفث تصرفا" في السر الذي لا يجرؤ المرء على النفاذ اليه. فالمرء يستطيع . غالبا" . ان يبذل الجهد لاقامة صلة ذلك باعمال (ليوناردو) المبكرة. فالاشخاص فيها مخنثون، انهم صبيان وسام، يتسمون بالرقة، ولهم اشكال أنثوية، انهم لا ينكسون رووسهم وانما

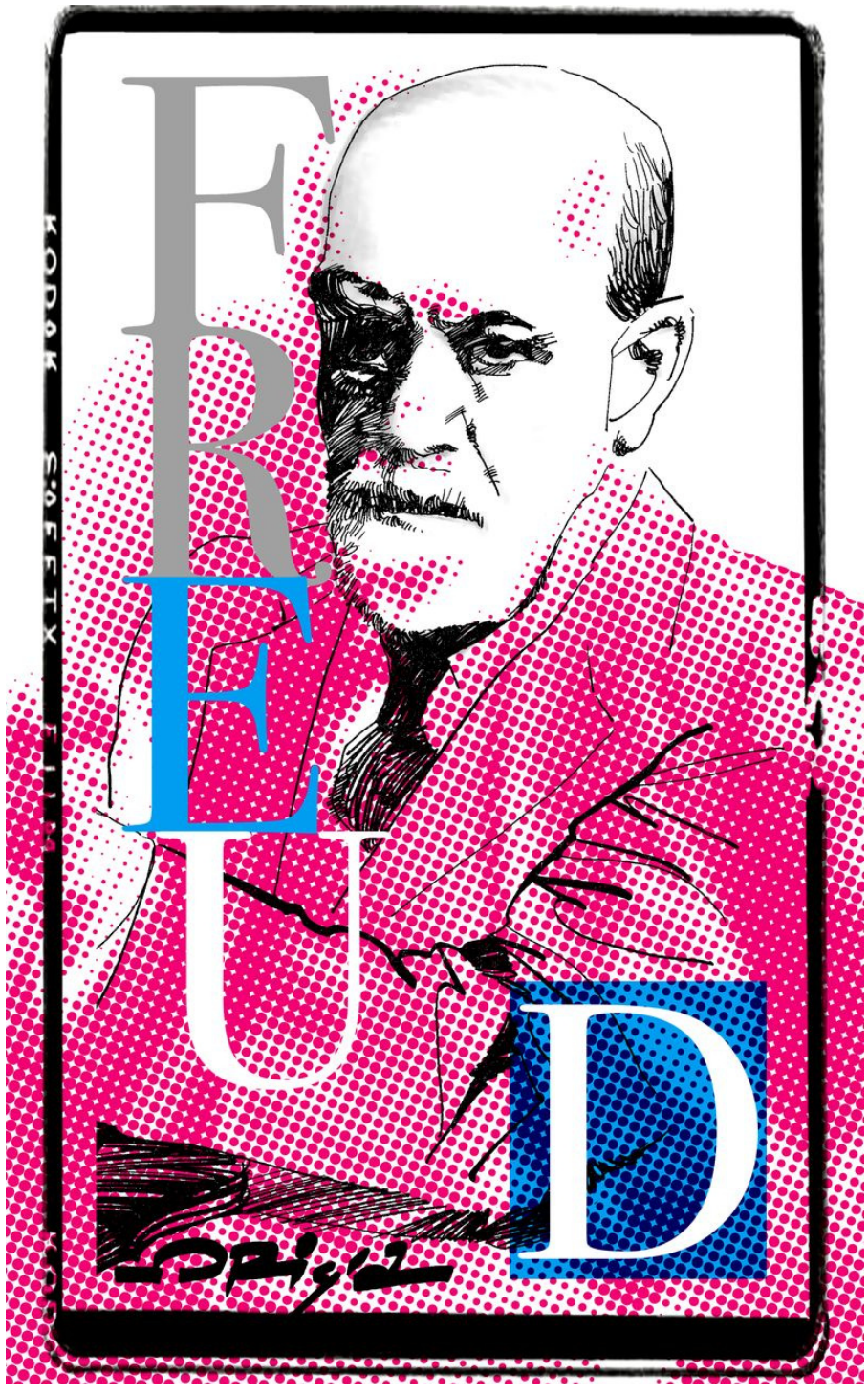

يحملقون في غموض بنظرة انتصار،كما لو كانوا منهمكين في حادثة هائلة سعيدة، وعليهم ان يحفظوها في كتمان، وتقودنا الابتسامة الفاتنة المألوفة الى ان نستنتج انه سر الحب. ومن الممكن ان يكون (ليوناردو) قد اخفى في هذه الاشكال تعاسة حبه وهزمها بفنه، حيث مثّل تحقيق رغبة الصبي الذي فتنته امه في وحدة هائلة للطبيعة الذكرية والانثوية.

ولنكن على يقين من ان الاب ايضا" كانت له اهمية في تطور (ليوناردو) من الناحية النفسية الجنسية، والاكثر من ذلك ان تلك الاهمية لم تكن بمعنى سلبي اثناء غيبة الاب خلال السنين الاولى من طفولة الصبي، وانما كانت اهمية مباشرة اثناء حضوره في طفولته المتأخرة. انه لايستطيع الامتناع. وهو طفل يرغب في أمه. عن الرغبة في ان يضع نفسه في مكان ابيه، وان يمثل نفسه به في مخيلته، واخيرا" ان يجعل مهمة حياته ان ينتصر عليه.

■ ولكنك تشير الى ان حديثك عن (دافينشي) لم يتناوله الا من ناحية الباثوجرافيا، وهذه لا تكشف عن نواحي النبوغ لدى (دافينشي) العظيم، لان منهج التحليل النفسي لا يستطيع اطلاعنا على طبيعة العمل الفني.

فرويد:

– هذا صحيح ولكن ينبغي تثبيت نقطة مهمة هي انه في الفن وحده يندفع الانسان بفعل رغباته اللاشعورية فينتج ما يرضي أو يشبع هذه الرغبات. خذ مثلا" (ديستويفسكي). ففي شخصيته الخصبة وجوه عدة: الفنان الخالق، والاخلاقي، والعصابي، والآثم . فان الصلة التي لا يمكن ان يخطيء المرء في ادراكها بين قاتل الاب في الاخوة كارامازوف ومصير (ديستويفسكي) نفسه قد هزت اكثر من واحد من كتّاب السيّر وادّت بهم الى الرجوع الى مدرستنا (التحليل النفسي). لقد كان الحكم على (ديستويفسكي) بالاعدام . كسجين سياسي . حكما" ظالما" .

ولا بد أنه كان يعلم ذلك، لكنه قبل هذا العقاب الذي لم يكن يستحقه بين يدي الاب البديل . القيصر . كعوض عن العقاب الذي يستحقه على خطيئته ضد أبيه الفعلي، فهو بدلا من ان يعاقب نفسه، عوقب بواسطة أبيه الفعلي.

■ انك تربط الابداع الفني بالكبت والجنس والعصاب، وانك تعدّ عقدة اوديب (التي تعني في نظريتك: رغبة لاشعورية لدى كل الأطفال – من دون استثناء! – بقتل آبائهم وامتلاك أمهاتهم جنسيا) هي العقدة الرئيسة في الامراض العصابية. وتقرر بان الاعتراف بعقدة اوديب اصبح المبدأ الاساسي الذي يميز اتباع التحليل النفسي عن خصومه. و تقرر ايضا" بان عقدة اوديب تمثل القمة التي يصل اليها النشاط الجنسي الطفلي، وأنها المحدد الأعظم أهمية الذي يقرر سلوك الطفل في تكيفه الجنسي والتي تؤثر في نتائجها تأثيرا" حاسما" حتى في النشاط الجنسي للراشدين. وتضيف بأن كل شخص يصل لأول مرة الى هذا الكوكب يجابه مهمة التغلب على عقدة اوديب، التي هي جوهر العصاب ولبّه، وكل فرد يفشل في ذلك يقع فريسة العصاب. وتقرر اخيرا" بان عقدة اوديب تبدو في حياتنا على انها نهاية حكم عليها ان تكون مرعبة. فكيف توصلت الى هذه الاحكام؟

وبالمناسبة كنت انت قد حلمت في صباك بأنه قد نحت تمثالا كتب عليه: (الى من حلّ لغز ابي الهول وكان اشدّ الرجال اقتدارا"!).

فرويد:

– (اوديب ملكا) تدخل بين ما يعرف باسم مأساوية القدر، ويقال ان تأثيرها المأساوي يقوم بالتضاد بين مشيئة الالهة القاهرة وبين محاولة الانسان سدى ان يجنب نفسه الويل الذي يتهدده، وان الدرس الذي يخرج به من شهد المسرحية هو الاستسلام لمشيئة الالهة والاعتراف بالضعف الانساني.

ما أريد أن أقوله: اذا كانت (اوديب ملكا) تهز اليوم معاصرينا مثلما هزّت من عاصرها من الاغريق، فلا تفسير لذلك الا لأن وقعها لا يقوم على ما بين القدر وارادة الانسان من التضاد، وانما ينبغي ان نتلمس سرّ هذا الوقع في طبيعة المادة التي تشخص بها هذا التضاد. ان النبؤة قد صبت علينا . ولما نولد . تلك الدعوة التي صبت عليه فلعله قد قدّر علينا جميعا" ان نتجه بأول نشاطنا الجنسي جهة الام، وبأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الاب.

واحلامنا تقنعنا بان الامر كذلك، فاسطورة اوديب قد نبعت من مادة حلمية قديمة ازلا، متصلة بهذا الاضطراب الاليم الذي ينتاب علاقة الطفل بوالديه من جراء نزعاته الجنسية الاولى. ذلك ما نجده في نص مأساة (سوفوكليس) من اشارة لاشك فيها، فها هي ذي (يوكاستا) ترّفه عن اوديب . ولم يكن قد استنار بعد ولكن ذكرى النبؤة اخذت تشيع الاضطراب في نفسه . فاذا هي تشير الى حلم يأتي حقيقة اناسا" كثيرين، ولكن دون ان يعني ذلك . في زعمها . شيئا" .

(كم من مائت قبلك ضاجع في الحلم امه، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق الى ذلك بالا).

واليوم كما في ذلك الوقت يحلم الكثيرون بمضاجعة الأم ويرون احلامهم مستنكفين متعجبين، ومن السهل ان نفهم ان هذا الحلم هو مفتاح المأساة والجزء المكّمل للحلم بموت الاب. فقصة الملك اوديب استجابة من المخيلة الى هذين الحلمين النمطيين، وكما ان هذه الاحلام تصحبها. حين تقع للراشدين . مشاعر من النفور، فقد حق كذلك ان تضم الاسطورة في طياتها الارتياع وايقاع العقاب بالنفس. واما التحوير الذي يجيء بعد ذلك فمنشؤه مرة اخرى ان المادة تراجع هنا ايضا" مراجعة ثانوية خاطئة بهدف استخدامها في اغراض لا هوتية.

■ يعزو البعض ان اهتمام (شكسبير) بكتابة المأساة يرجع الى انه . شكسبير . شعر بهوة عميقة بينه وبين الحياة التي بدأت ترسخ سلطة الاقطاع. اما انت فانك تخضع هاملت شكسبير لنفس عقدة اوديب.. فما اسباب تردد هاملت من وجهة نظرك؟.

فرويد:

– ما اسباب هذا التردد، ذلك ما لا يتحدث النص بحرف عنه وبذلت في تفسيره محاولات لا تحصى فما اتت بطائل. فهاملت في نظر (فيلهم مايشتر) اصلها (جوته) ولا تزال لها الغلبة حتى اليوم بمثل هذا الطراز من الرجال الذين شلت عندهم القدرة على العمل المباشر بفعل نمو العقل نموا" مفرطا" . وفي نظرة اخرى ان الشاعر اراد ان يصور لنا مريضا" مذبذبا" شارف النوراستانيا. بيد ان المسرحية ترينا ان هاملت بعيد كل البعد عن ان يصور في صورة انسان فقد كل قدرة على العمل. فنحن نراه يعمل مرتين: الاولى في ثورة مباغتة حين يطعن السامع المستترق من وراء الستار، والثانية فعن قصد مبيت بل في مكر جم، وذلك حين يرسل برجلي البلاط الى الموت الذي كان مدبرا" له هو، مبديا" في ذلك كل التحلل الخلقي الذي يمكن ان يتصف به أمير من أمراء عصر النهضة.

فما الذي يوقفه على هذا النحو في انفاذ المهمة التي كلفه بها شبح أبيه؟. الجواب نجده مرة أخرى في الطبيعة الخاصة لتلك المهمة. ان هاملت يستطيع ان يأتي كل شيء الا ان يثأر من الرجل الذي ازاح اباه، واحتل مكانته عند أمه. الرجل الذي يريه . اذن . رغباته الطفلية وقد تحققت. وهكذا يحل عنده تأنيب النفس وتخويف الضمير محل الاستبشاع الذي كان كفيلا" ان يدفعه الى الانتقام الذي كلف بعقابه. وانا اذ اقول ذلك اترجم في عبارة شعورية ما كان مقررا" بقاءه لا شعوريا في نفس البطل.

فاذا اراد البعض ان يدعو هاملت هستيريا، لم اجد الا ان اسّلم بأن تلك نتيجة تخرج من تفسيري، ويتسق ذلك احسن الاتساق ما يعرب عنه هاملت مع اوليفيا من نفور من الحياة الجنسية. وهذا النفور الذي كان مقدرا" ان يزيد على الدوام تمكنا من نفس الشاعر في مستأنف سنواته حتى بلغ التعبير عنه اقصاه في (تيمون الاثيني).

فما يطالعنا في هاملت بالطبع هو الحياة النفسية (لشكسبير). واني الاحظ في كتاب (جورج براندس ١٨٩٦) قوله:

ان (شكسبير) كتب هذه المسرحية فور موت أبيه . ١٦٠١ . اي حين كانت وطأة الحزن عليه في اشدّها وحين بعثت في نفسه من جديد . كما يحق لنا افتراضه . مشاعره الطفولية نحو والده. ومن الامور المعروفة كذلك ان والد (شكسبير) الذي مات في سن مبكرة كان يحمل اسم (هامنت) وهو يطابق هاملت.

■ طبقا" لوجهة نظرك فان اوديب سوفوكليس وهاملت شكسبير والاخوة كارامازوف لدستويفسكي، تتعرض جميعا" لموضوع واحد هو قتل الاب، وان الدافع لذلك هو المرأة الام.

فرويد:

– ان اكثر الامور صراحة هو بالتأكيد تمثل المأساة المشتقة من الاسطورة اليونانية، ففيها نجد ان البطل نفسه هو الذي يرتكب الجريمة، ولكن المعالجة الشعرية تكون مستحيلة دون تهذيب وتخفيف. فالاعتراف المكشوف بنية ارتكاب جريمة قتل الأب يبدو غير محتمل بدون اعداد تحليلي. فالمأساة اليونانية تقدم . مع احتفاظها بالجريمة . التخفيف اللازم للعبارات، بطريقة فنية بوساطة اسقاط الدافع اللاشعوري للبطل، في الواقع، في صورة اكراه من القدر قد انتقل اليه. يرتكب البطل فعلته بدون قصد، وهو يرتكبها في الظاهر تحت تأثير امرأة، ويؤخذ هذا العنصر الاخير . مع ذلك . في الاعتبار، في الظرف الذي يستطيع فيه البطل فحسب ان يصل الى امتلاك الملكة الام، بعد ان يكون قد كرر فعلته عن التنين الذي يرمز لـلاب. والبطل بعد ان يكتشف ذنبه ويصبح شعوريا" ، لا يقوم بأية محاولة لمسامحة نفسه بالاستشهاد بالحيلة المصطنعة عن قهر القدر. انه يسّلم بجريمته ويعاقب عليها، كما لو كانت قد تمت على مستوى شعوري تماما" . وهو ما يبدو لعقلنا ظلما" ، وان يكن صحيحا" تماما" من الناحية النفسية.

اما في مسرحية هاملت فالتمثيل غير المباشر اكثر من ذلك. فالبطل لا يرتكب الجريمة بنفسه، انما الذي نفذّها شخص اخر، لا تعدّ الجريمة بالنسبة له جريمة قتل أب. فالدافع الحقيقي للمنافسة الجنسية على المرأة لا يحتاج من ثم الى تخفيف. ونحن نرى عقدة اوديب عند البطل في ضوء معكوس حينما نعلم الاثر الواقع عليه من الجريمة التي ارتكبها الآخر ولابد ان ينتقم لهذه الجريمة، ولكنه يجد نفسه عاجزا" . بصورة غريبة . عن ذلك. ونحن نعلم ان شعوره بالذنب هو الذي يعوقه، غير ان الشعور بالذنب يفسح مكانا" . بطريقة تتمشى تماما" مع العمليات العصابية . لادراك عدم كفائته لانجاز مهمته. فهناك دلائل على ان البطل يحس بالذنب كفرد فائق التميز، لكنه يحتقر الاخرين بدرجة لا تقل عن احتقاره لنفسه.

اما الاخوة كارمازوف فتخطو خطوة ابعد في نفس الاتجاه، ففيهما ايضا" ترتكب الجريمة بيد انسان اخر. مع ذلك فهذا الشخص الآخر ايضا" تربطه بالرجل المقتول نفس علاقة البنوة التي تربطه بالبطل ديمتري، ودافع المنافسة الجنسية في حالة الشخص الآخر معترف به صراحة، انه اخو البطل وانها لحقيقة ملحوظة. ان (ديستويفسكي) قد نسب اليه مرضه هو . اي الصرع المزعوم . كما لو كان يسعى الى الاعتراف بان الجانب الصرعي فيه . اي العصابي – كان هو مرتكب جريمة قتل الاب.

■ بما أنك لا تستثني أحدا من عقدة أوديب،سأتجرّأ وأسألك: كنت الولد الأكبر بين أخوانك وأخواتك،وكانوا يعدّونك من صغرك ذكيا. وكنت تحظى بعناية خاصة من والدتك، فهل يحق لنا أن نطّبق قولك (أن الولد ينجذب جنسا نحو أمه) على تعلّق فرويد الرومانسي بأمه، سيما وأنك كنت في العشرين من عمرك شابا وسيما وأجمل من أبيك بكثير؟!.

فرويد:

– " يضحك " . ان كان قد حدث لك مثل هذا..فقد حدث لي.

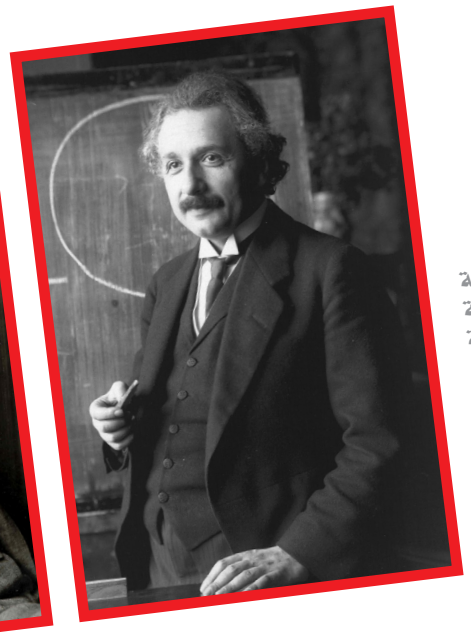

في سنة ١٩٣٢، نظمت «عصبة الأمم» وهي المنظمة التي كانت، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، أول تنظيم لأمم العالم، وكانت لاحقاً سلف منظمة الأمم المتحدة، حلقة خطابات متبادلة بين كبار مفكري العالم، مطلوب منها أن تساهم في خير البشرية عبر تبادل الأفكار. وكان من بين المفكرين الذين اقترحت عليهم العصبة تبادل الخطابات والأفكار مؤسس التحليل النفسي سيغموند فرويد من ناحية، والعالم ألبرت أينشتاين من ناحية ثانية.

إبراهيم العريس

فرويد في رسالة الى أينشتاين:

الثقافة وحدها تمنع الحروب

ولسوف يكون السؤال «لماذا الحرب؟» العنوان العام لذلك التبادل، علماً أن الخطاب الأول جاء من مكتشف نظرية النسبية الذي بعث الى فرويد رسالة يقترح عليه فيها أن يكون التبادل بينهما متعلقاً بمسألة ما يمكن فعله بغية حماية الإنسانية من لعنات الحرب. يومها بعد شيء من التردد استجاب فرويد الى الدعوة وقرر خوض النقاش على طريقته.

والرسالة – الرد التي كتبها فرويد يومها، نشرتها عصبة الأمم في العام ١٩٣٣، في لغات ثلاث هي الألمانية – لغة الكتابة – والفرنسية والانكليزية، ثم راحت ترد منذ ذلك الحين في ثنايا الأعمال الكاملة لفرويد تحت عنوان «لماذا الحرب؟». وفي العربية أوردها سمير كرم، كواحد من فصول كتاب أصدره، عن «دار الطليعة» في بيروت، سنة ١٩٧٧، تحت عنوان «أفكار لأزمنة الحرب والموت».

وهذا النص الفرويدي، هو دائماً من الأهمية، بحيث يبدو لنا من المفيد العودة إليه والتذكير به دائماً لعل في العودة فائدة ما، لنص كتبه عالم كبير عرف الكثير عن الغرائز البشرية، وربط الحرب بتلك الغرائز، من دون أن ينكر أبداً دوافعها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، موجهاً إياها الى عالم آخر، لم يكف هو أيضاً عن مناهضة الحرب، كل حرب بوصفها مجرد قتل وتدمير لا تكسب منها الإنسانية شيئاً في نهاية الأمر مهما كانت هوية المنتصر أو المهزوم.

يلفت فرويد في نصه الى أن مكاتبه يبدأ حديثه بالإشارة الى العلاقة بين الحق والقوة، وهو يثني على هذه البداية، لكنه يتساءل عما إذا لم يكن من الأجدى إبدال كلمة «القوة» بكلمة «العنف» لأنها أكثر جسارة وفظاظة؟ ويضيف: «إن الحق والعنف يبدوان لنا اليوم كنقيضين. وعلى ذلك فإنه يمكن ان نبين بسهولة ان الواحدة منهما نشأت عن الأخرى».

ويقول فرويد: «إنه لمبدأ عام (...) ان صراعات المصالح بين الناس تسوى باستخدام العنف. هذا صحيح للمملكة الحيوانية بأسرها، وهي المملكة التي لا يملك الناس استبعاد أنفسهم منها». ومنذ البداية، يؤكد فرويد «في قطيع بشري صغير كانت القوة العضلية الأكثر تفوقاً هي التي تقرر من يملك الأشياء، وإرادة من هي التي ستسود».

ولكن سرعان ما أضيفت الأدوات الى القوة العضلية، قبل أن تحل الإدارات محل تلك القوة. «فالفائز بات من يملك الأسلحة الأفضل أو من يستخدمها في شكل أكثر مهارة». ويلفت فرويد هنا الى انه «من اللحظة التي أدخلت فيها الأسلحة – أي الأدوات – بدأ التفوق يحل فعلاً محل القوة العضلية. ومع هذا بقي الغرض النهائي من القتال كما هو: إجبار طرف طرفاً آخر على التخلي عن طلبه أو وقف مسيرته بفعل الدمار الذي يلحق به، وبفعل شل قوته.

وهذا الغرض يتحقق بالكامل إذا أباد عنف المنتصر خصمه بصفة نهائية، أي بعبارة أخرى إذا ألغى وجوده أي قتله. وكانت لهذا ميزتان أولاهما أن الخصم يصبح غير قادر على تجديد تصديه لإرادة المنتصر، وثانيتهما ان قتل العدو كان يشبع ميلاً غريزياً (...). ناهيك بإمكان أن نضيف الى هذا كله «ان العدو يمكن ان يستخدم في إنجاز خدمات مفيدة للمنتصر إذا ترك حياً في حال من الخوف المستديم». وتلك كانت، بالنسبة الى فرويد «البداية الأولى لفكرة الإبقاء على حياة العدو. ولكن، بعد ذلك، كان يتعين على المنتصر أن يعالج تعطش خصمه

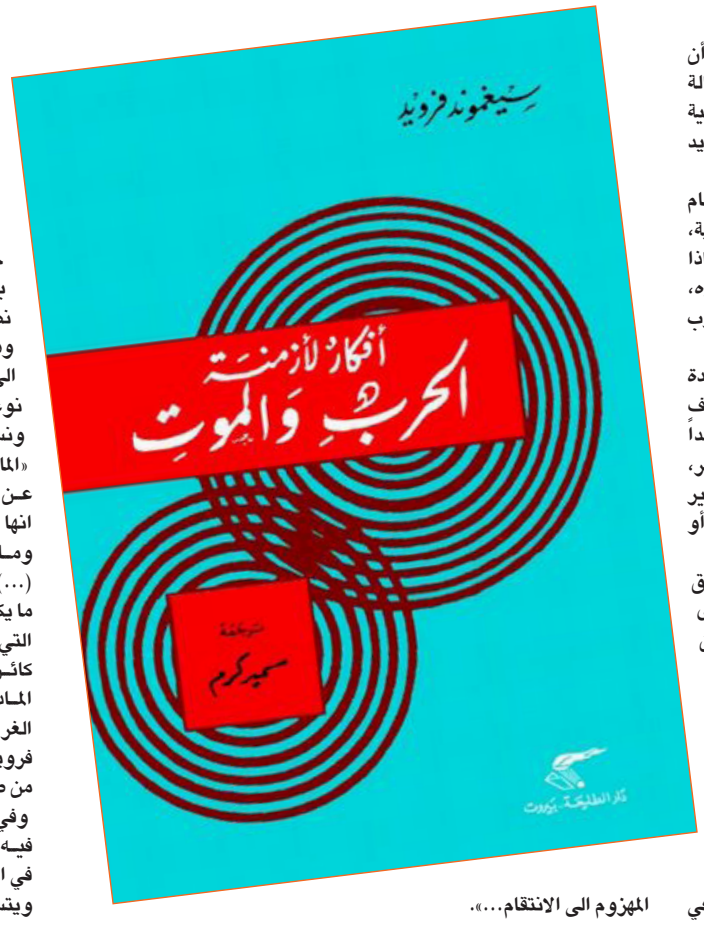

المهزوم الى الانتقام...».

وبعد هذه المقدمات يستعرض فرويد تاريخ الجنس البشري ليستخلص انه يكشف «سلسلة لا نهاية لها من الصراعات بين جماعة، أو جماعات، وأخرى... بين وحدات أكبر وأصغر (...) كانت تسوى دائماً بقوة السلاح»، مستخلصاً، انطلاقاً من التجربة التاريخية ان «الحروب من هذا النوع تنتهي دائماً إما بالإضرار بأحد الأطراف أو إسقاطه نهائياً».

ويرى فرويد أننا إذا عدنا الى أزمنتنا الحاضرة، على ضوء ذلك الواقع التاريخي الذي يصف تبدلات الأمم والإمبراطوريات والجماعات وحلول واحدة منها، مكان الأخرى، ستتوصل الى النتيجة نفسها وهي «أن الحروب لن تمنع إلا إذا اتحدت الإنسانية في إقامة سلطة مركزية يسلم إليها حق إصدار الحكم على كل الصراعات بين المصالح» وينطوي هذا في رأي فرويد، على ما يبدو لنا بديهياً في علم السياسة: «خلق سلطة عليا وتزويدها بالقوة الضرورية»، علماً أن أياً من هذين لن تكون له أية قيمة من دون الآخر...

وبعد هذا الحديث السياسي، الذي يبدو فيه فرويد وكأنه يلتزم بالغرض الأساس الذي يقف وراء المشروع ككل، كما للنص الوارد في رسالة أينشتاين، نرى مؤسس التحليل النفسي يعود الى صحة الأساس: الحديث عن الغريزة البشرية وعن اختيار الحرب كوسيلة للبقاء أو للسيطرة. فهو ما كان في إمكانه أن يختم نصه من دون أن يطل على هذه المسألة. ومن هنا يقول مخاطباً أينشتاين: «... انك تعبر عن دهشتك إزاء حقيقة أنه من اليسير للغاية جعل الناس متحمسين للحرب، وتضيف، شكك بأن هناك شيئاً ما يفعل فعله فيهم – غريزة الكراهية أو التدمير – يقطع نصف الطريق للالتقاء مع جهود مثيري الحروب».

وهنا يستميح فرويد أينشتاين عذراً، ليرسم له جزءاً من أفكاره التي قادته الى هذا الاستنتاج فيقول: «يذهب فرضنا الى ان الغرائز الإنسانية من نوعين فحسب: غرائز تسعى للحفاظ على النوع والتزواج التوحيدي – ونسميها غرائز شبقية، بالضبط بالمعنى الذي يستخدمه أفلاطون في محاورة «المائدة» ونسميه نحن غرائز جنسية، مع مد نطاق الشعور الشائع للجنسية عن قصد–، وغرائز أخرى تسعى الى التدمير والقتل والتي نصنفها معاً على انها غرائز عدوانية أو تدميرية.

وما هذا كما ترى سوى إيضاح نظري للتعارض المألوف بين الحب والكراهية (...). ويرى فرويد أن ظواهر الحياة تنشأ من عمل النوعين معاً، حيث دائماً ما يكون النوع مصحوباً بالنوع الآخر». والحال أن هذه المقدمات الجديدة هي التي قادت فرويد الى الافتراض، أخيراً، بأن الغريزة التدميرية تعمل داخل كل كائن حي وهي تكون «من أجل تحطيم الحياة وردّها الى حالها الأصلية، حال المادة غير الحية. ومن هنا فإنها تستحق أن تسمى غريزة الموت، بينما تمثل الغرائز الشبقية/ الجنسية الجهد من أجل الحياة. وفي هذا السياق، لا يفوت فرويد أن يرى ان المخلوق الحي إنما يرى دائماً انه يحافظ على حياته الخاصة من طريق تدمير حياة خارجية».

وفي النهاية إذ يربط فرويد إفلات الإنسان من الغرائز التدميرية بفعل الثقافة فيه، لأن الثقافة تفعل قبل أي شيء آخر، في مجال تقوية العقل الذي يتحكم في الحياة الغريزية، محدثاً انعطافة أساسية في وجود الدوافع العدوانية. ويتساءل فرويد: إذا كان الذين يحوزون الثقافة والعقل يتحولون الى بشر مسالمين، «كم من الوقت يتعين علينا أن ننتظر قبل أن يصبح باقي البشر مسالمين أيضاً؟».

في ذلك الحين لم يحر فرويد جواباً على هذا السؤال، لكنه أضاف: «قد لا يكون من قبيل التفكير الطوباوي أن نأمل بأن يؤدي الموقف الثقافي من ناحية، والفزع المبرر من عواقب الحرب من ناحية ثانية، الى وضع نهاية لشن الحروب» أما بأية سبل وعلى أية خطوط جانبية سيتم هذا الأمر «فذلك أمر لا قبل لنا بتخمينه. ولكن شيئاً واحداً يمكننا أن نقوله: ان كل ما يدعم نمو الثقافة يفعل في الوقت نفسه ضد الحرب.

عن جريدة الحياة اللندنية

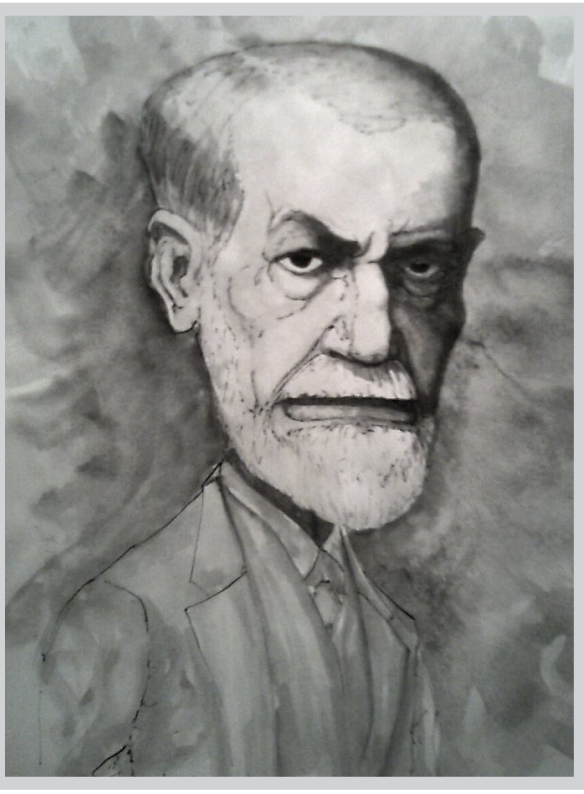

مثلما لا يمكن لأحد أن ينكر أن أكبر رؤوس الأموال في العالم تتركز بيد اليهود ، كذلك لا يمكن لأحد أن ينكر فضل (العلمانيين) اليهود في بناء حياة العالم المعاصرة ، في الفلسفة والأدب والفن والتجارة وعلم النفس والسياسة ، وفي مختلف مناحي الحياة ، وهذا ليس عائد الى كونهم (شعب الله المختار) كما يدعون.. ولكن الى جهد الغالبية منهم ومثابرتهم في مختلف مناحي الحياة أكثر من غيرهم من بقية البشر.

الكتاب الذي سأعرضه لكم اليوم عمره ٧٠ عاماً ، لأنه صدر عام ١٩٣٩ مؤلف الكتاب هو عالم النفس الجليل (سيغموند فرويد) ويقع الكتاب في ١٣٠ صفحة من قطع المتوسط الصغير ، وبسببه عانى فرويد من مختلف أنواع الإنتقادات التي كادت أن تحط من شأن نظريته الرائدة في التحليل النفسي.

قبل أن ندخل الى عالم الكتاب دعونا أولاً نتعرف على من هو سيغموند فرويد ، وقد يبدو من السخف الحديث عن رجل هو أشهر من نار على علم... ولكن لا بأس من التعريف به لمن لا يعرفه.

ميسون البياتي

موسى والتوحيد

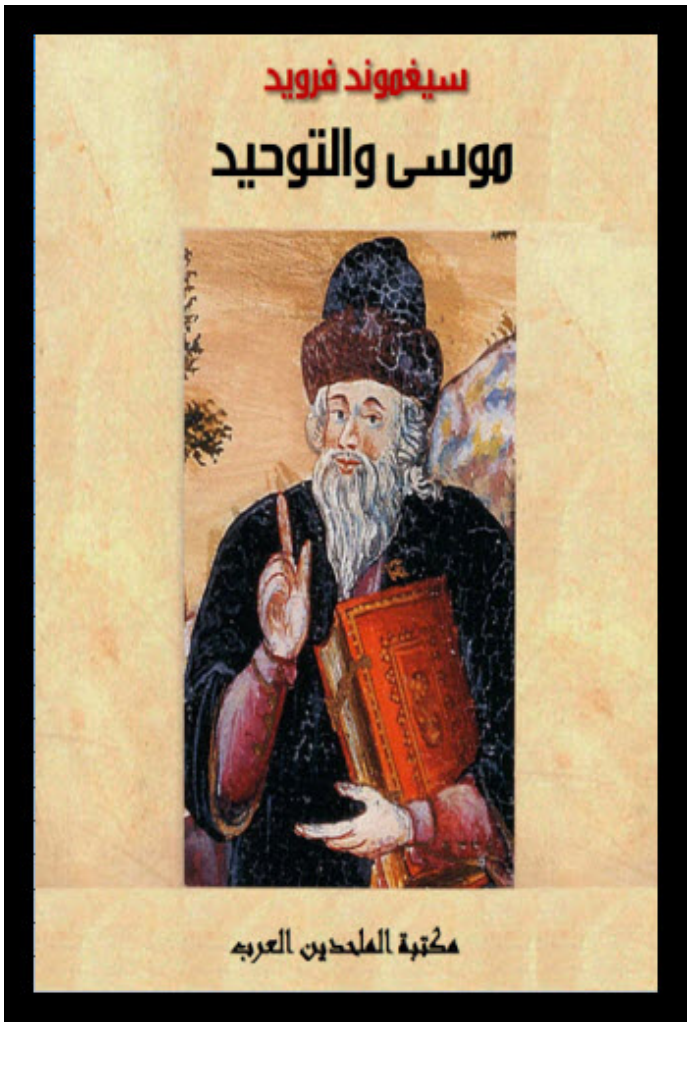

ولد سيغموند فرويد يوم ٦ مايس ١٨٥٦ لعائلة يهودية أشكنازية نمساوية يعود أصلها الى المنطقة المحصورة بين غرب أوكرانيا وجنوب شرق بولندا. وكان الإبن البكر لتاجر صوف أنجب عداه سبعة أبناء آخرين. كان يبدو عليه الذكاء منذ طفولته ولهذا عامله والداه معاملة مختلفة عن جميع أشقائه الآخرين ، ورغم فقرهما إلا أنهما ضحيا بأشياء كثيرة من أجل تعليمه تعليماً جيداً.

بسبب الأزمة الإقتصادية التي وقعت خلال عام ١٨٥٧ خسر الوالد تجارته ، فإضطرت العائلة الى الرحيل الى لايبزغ وبعدها إستقرت في فيينا.

إنتسب فرويد الى الدراسة عام ١٨٦٥ كطالب خارجي وتخرج منها عام ١٨٧٣ بإمتياز مع مرتبة شرف. ثم إلتحق بجامعة فيينا لدراسة الطب وتخرج منها عام ١٨٨١ وفي العام ١٨٨٥ سافر الى باريس للدراسة على يد المتخصص بالأعصاب (جان مارتن چاركوت).

كان چاركوت متخصصا في دراسة الهستريا ومدى قابلية المصاب بها للعلاج بالتنويم المغناطيسي.

بعد إفتتاح عيادته المتخصصة في الطب العصبي تزوج فرويد من (مارتا بارنيز) حفيدة حاخام هامبورغ الأعظم عام ١٨٨٦.

ثم بدأت مؤلفاته المهمة بالظهور تباعاً لتلفت النظر الى دراساته القيمة.

في آذار ١٩٣٨ قامت ألمانيا النازية بضم النمسا إليها مما أضطر فرويد للرحيل مع عائلته الى لندن وكان عمره ٨٢ سنة.

هذا الإضطهاد النازي لليهود جعل فرويد يتفكر في معنى اليهودية ، ومعنى ديانة التوحيد التي دعا إليها النبي موسى عليه السلام ، فكان من نتيجة ذلك أنه أصدر في العام ١٩٣٩ مقالة عنوانها (موسى والتوحيد) التي تحولت الى هذا الكتاب أو (الكتيب) الذي نحن بصدد عرضه لكم اليوم.

بدأ فرويد بكتابة (موسى والتوحيد) عام ١٩٣٤، وأعاد صياغته عام ١٩٣٦، كتب المقالين الأولين منه بشكل موجز، ثم نشرت النسخة النهائية عام ١٩٣٩. وأعيد نشرها معدلة في الإصدار الذي أعده البروفيسور جيمس ستراچي ١٩٦٤.

يحتوي الكتاب على الكثير من التكرار في الكتابة ويعكس حالة فرويد الفكرية وشكوكه وتردده وقلقه إزاء المعلومات ذات الطابع العلمي التي يقدمها، ومخاوفه بشأن إستقبال أهل فيينا الكاثوليك أو الجالية اليهودية لهذه المعلومات.

الكتاب يحتوي على ٣ مقالات غير متكافئة الطول: (موسى كان مصرياً) و (إذا كان موسى مصرياً) و (موسى، شعبه، وديانة التوحيد) المقال الأخير يتضمن ملاحظات مكتوبة في أوقات مختلفة، واحدة في فيينا قبل مغادرة فرويد الى بريطانيا، والأخرى في لندن، والتي تتناقض مع الأولى جزئيا، أما الجزء الثاني من المقال الثالث فيسبقه تلخيص يتضمن الكثير من المعلومات الواردة في المقالات الأولى.

في المقالة الأولى (موسى كان مصرياً) يبحث فرويد في الأدلة المتفقة والمتعارضة مع فرضية كون موسى مصرياً من عدمه من خلال إسمه ، فهو باللغة الهيروغليفية إسمه (رعموس) وبعد العبور زالت عن إسمه (رع) المصرية التي تعني رب ، وتحول إسمه الى (موسى) بالعربية و(موشيه) بالعبرية.

بدأت المجتمعات القديمة بتجسيد حكايات أبطالها وملوكها وقادتها من مؤسسي الأديان والسلالات والإمبراطوريات والمدن ، بحكايات وأساطير شعرية ، أما ولاداتهم فتكون عادة لآباء وأمهات من أصل أرستقراطي ، ولكن تلك الولادات تكون مسبوقة بصعوبات ، وقد تأتي نبؤة تحذير من قدوم ذلك الطفل بفأل سيء على والديه ، لذلك غالبا ما يضعان الطفل في نعش ويلقيانه في الماء ، بعد ذلك يجد الطفل من يربيه سواء كان المربي حيواناً أم إنسان ، وحين يصبح الطفل شاباً فإن أول ما يقوم به هو الإنتقام من والديه ، ودون أن يدري. تختلف هذه الحكاية قليلاً أو كثيراً ما بين شخصية وأخرى ، ولدينا من الأمثلة عليها حكايات رومولوس ، وسرجون الأكدي ، ولدينا شبيه لها في عالم الأدب مسرحية (أوديب ملكاً) لسوفوكليس.

الأمر مع موسى كان مختلفاً ، فقد كان هو وأهله طبقة متواضعة من (اللاويين اليهود) لكن العائلة التي تبنته كانت عائلة ملكية ، ويرى فرويد هذا الإنحراف الكبير في القصة الأصلية هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها جعل موسى ينتمي قلباً وقالباً الى اليهود ، وليس الى الفرعون ، بينما حسب رأي فرويد فإن موسى ينتمي الى الطبقة الأرستقراطية والفرعون ، وهذا ما سيؤدي الى فهم الدوافع التي كانت الأساس الى عدد من القوانين التي قننها موسى فيما بعد للشعب اليهودي.

في المقالة الثانية (إذا كان موسى مصرياً) يعالج فرويد مشكلة: مالذي يجعل كاهناً أو مسؤولاً أو شخصاً رفيع المستوى يقود جمعاً من المتخلفين إجتماعياً الناوين على الهجرة الى خارج مصر ، ثم ننسب إليه كل حكمة المصريين.. وبعد ذلك لا نعده مصرياً؟ الإحتمال الآخر هو أن موسى أعطى اليهود ديانة أخناتون (فرعون التوحيد) الذي فرض على المصريين ديانة توحيد صارمة لكن حكمه إستمر منذ عام ١٣٧٥ قبل الميلاد الى عام ١٣٥٨ قبل الميلاد فقط ، إنتهت بقتله وإجبار الناس على التراجع عن دين

التوحيد الذي كان قد أمرهم أخناتون به. ومن المحتمل أن موسى علم اليهود ديانة أخناتون التوحيدية من جديد.
ثم يذكر فرويد أن موسى إذا كان مصرياً ، ويعلم ديانته لليهود ، فهي بلا شك ، ديانة أخناتون ، وليست ديانة الشعب المصري ، وهذا ما سيتطلب منه أن ينظر في ديانة الشعب المصري ويؤكد على كل ما يعارضها ، آخذاً بنظر الإعتبار أن ديانة أخناتون هي عبادة إله الشمس (أتون) التي تحولت في العبرية الى عبادة الرب (أدوناي) الذي ليست له علاقة بتقديس الشمس.
شبه آخر بين ديانة أخناتون التوحيدية ، والديانة اليهودية هو موقفهما المتشابه من الموت وحياة ما بعد الموت ، وهذه أيضا إعتبرها فرويد نقطة جوهرية للتشابه بين الديانتين.
من العلامات التي تؤكد أن موسى كان قد أعطى لليهود ديانة مصرية فرضه عليهم (الختان) فالدلائل تشير الى أن اليهود لم يحصلوا على ذلك إلا من مكان محدد واحد هو مصر. فمن بين جميع الأقوام التي سكنت شرق المتوسط ، كان المصريون وحدهم هم الذين يزاولون الختان تمييزاً لأنفسهم عن بقية الأقوام (الغرباء).
يناقش فرويد بعد ذلك أن موسى كان قد أعطى تعاليمه لليهود بعد قرن أو قرنين من موت أخناتون ، وهي لا تشبه تعاليم أخناتون بالكامل ، وسبب ذلك أن ديانة التوحيد الأخناتونية حين قُتل أخناتون ، وأمر الناس بالإرتداد عنها.. ما كانت ديانة مكتملة بعد ، بل كانت في طور التشكيل ، ولهذا فإن موسى وبعد حوالي قرنين من ذلك (القرن ١٣ قبل الميلاد) كان قد أعطى ديانة التوحيد الى اليهود بعد أن أتم تشكيلها.

في بداية المقالة الثالثة (موسى ، شعبه ، وديانة التوحيد) يكتب فرويد مذكرتين تمهيديتين لهذا المقال النهائي ، المذكرة الأولى كتبها في ڤيننا / آذار / ١٩٣٨ يتحدث فيها عن مشكلة إنحسار الدين في روسيا السوفييتية بمقولة (الدين أفيون الشعوب) أو الإستعاضة عن الدين بالإنضباط والإحساس بالواجب في إيطاليا ، ويقرر أنه يواجه عقبات مختلفة من أجل إكمال كتابه وشعوره بالخوف والتهديد بسبب التحليل النفسي الذي يمارسه إزاء الكنيسة الكاثوليكية.
المذكرة الثانية كتبها في لندن / حزيران / ١٩٣٨ أكد فيها على أن العقبات الخارجية بعد مغادرة النمسا لم تعد موجودة ، لكن صراعاته الداخلية كانت متنامية ، فهو يشعر بمزيد من الشك في مسيرة عمله ، لكنه يختتم المذكرة بعزمه على المواصلة الى حيث تقوده أفكاره.
سرعان ما يعود فرويد الى سرد الحقائق التاريخية: الفرعون أمينوفيس الرابع طور ديانة توحيدية قوية ، وغير إسمه ليتبع إسم إله الشمس أتون ، فتغير إسمه الى أخناتون، إنهار دينه بمقتله عام ١٣٥٠ قبل الميلاد ، حدوث فوضى وإرتداد عن ديانة التوحيد. والفترة منذ هذا التاريخ وحتى الإحتلال الكامل لأرض الكنعانيين يعتريها الغموض.
هناك حكايات عن أن اليهود كانوا قوماً عنيدين قتلوا موسى الذي منحهم الدين ،

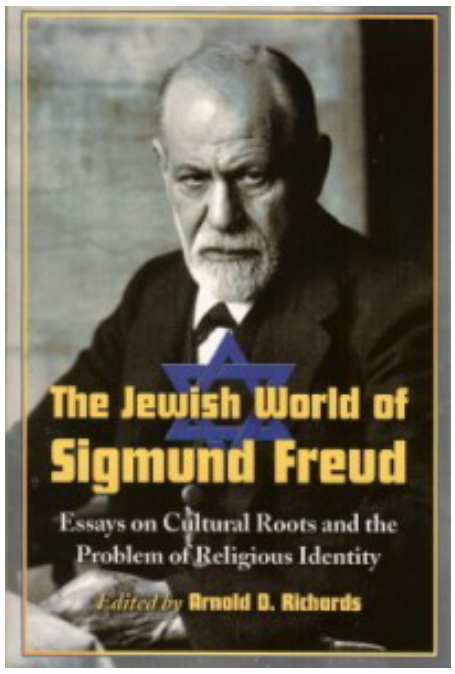

يتوصل فرويد في النهاية الى أن قبول فكرة وجود رب واحد ، وإقصاء فكرة وجود أرباب متعددة ، كانت تحتاج الى وقت طويل قبل أن تبرهن على وجودها الدائم في العالم. وهي في ذلك تشبه نظرية داروين في النشوء والإرتقاء التي جوبهت بالرفض الجامح وتمت معارضتها بعنف ، قبل أن تقبل بعد قياسها بالعقل ، ويكرَّم داروين بسببها.

وأن هؤلاء اليهود إتحدوا مع قبائل غيرهم في المنطقة الواقعة بين فلسطين وسيناء والحجاز ، وقاموا بعبادة رب جديد هو (يهوه) إله البركان في قادش. ثم خروج الفرعون (مرنبتاح) لمحاربتهم في حدود ١٢١٥ قبل الميلاد ، وفي سياق إعداده لحملات على سوريا وفلسطين تم العثور على إسم إسرائيل بين أسماء الجيوش التي هزمها.
يتوصل فرويد في النهاية الى أن قبول فكرة وجود رب واحد ، وإقصاء فكرة وجود أرباب متعددة ، كانت تحتاج الى وقت طويل قبل أن تبرهن على وجودها الدائم في العالم. وهي في ذلك تشبه نظرية داروين في النشوء والإرتقاء التي جوبهت بالرفض الجامح وتمت معارضتها بعنف ، قبل أن تقبل بعد قياسها بالعقل ، ويكرَّم داروين بسببها. تماماً مثل من يتعرض الى حادث سيارة ويصاب بإرتجاج فإنه يكون بحاجة الى عدة أسابيع لتفهم الموقف والعودة الى وضعه الطبيعي.. وهذا ما ندعوه ب (فترة الحضانة).

وجهت الإنتقادات الى عمل فرويد بانه عمل ضعيف وليست به مصداقية تاريخية عالية تتفق مع (البايبل) وأنه شوه قصة ولادة موسى وحقيقة الختان من أجل أن تتفقا مع رؤيته هو.
في الكتاب الثاني من البايبل / سفر الخروج ، هناك وصف لإضطهاد اليهود الذين يعيشون في مصر منذ ٤٠٠ سنة وهم من نسل يوسف وأخوته ، ومنهم ولد موسى في عائلة يهودية لكنه تربى في كنف الفرعون ، لكن المصريين ماكانوا يثقون به. حيث يعتبر اليهود قصة خروج هؤلاء اليهود من مصر برعاية إله العبرانيين هو مقدمة لتوحيدهم بإسم (شعب الله المختار) فدحضوا كل التفسيرات التي جاء بها فرويد جملة وتفصيلاً.
أعترف بأن موت فرويد كان حقيقة صادمة لي.. ليس لأنه مات ، فالموت حق علينا جميعاً ولا يستثني أحداً.. ولكن للطريقة التي مات بها.
في العام ١٩٣٩ كان فرويد قد غير سكنه من ڤيننا الى لندن للهرب بنفسه وعائلته من الألمان ، وبالتأكيد في حياته الجديدة يفتقد الكثير من العادات والممارسات الصغيرة التي كان قد درج عليها في حياته السابقة التي إمتدت ٨٢ عاما.
بعد نشر كتابه في العام ١٩٣٩ (موسى والتوحيد) تعرض الى نقد قاسٍ من مجتمعه اليهودي.
وكان فرويد يعاني من سرطان الرأس والعنق بسبب إفراطه في تدخين السيكار الذي يكاد يرافقه في جميع صوره المنشورة.
تجمعت عليه كل هذه الأسباب ، ورغم أنه أستاذ رغبات الحياة (الآيروسات) وخير من يُعرِّف رغبات الموت (الثاناتوسات) ، ورغم أنه أبدع لنا نظرية التحليل النفسي التي تشرح النفس بفرضية مرسومة على الورق.. أعانت باحثي الفن والأدب على فهم وتحليل ورسم شخصياتهم الفنية والأدبية.. ورغم أنه رب (ميكانزمات الدفاع النفسي).. لكنه رغم هذا قرر وهو في ٨٣ من العمر أن ينتحر.
قرأ رواية بلزاك (سحر على الجلد) التي كتبت عام ١٨٣١ وتتحدث عن شاب يبحث عن قطعة من جلد ظهر الحصان يستطيع أن يمارس السحر عليها لتتحقق كل رغباته ، لكنه بعد عثوره عليها يكتشف أنها إنكمشت ولم تعد طرية ، في نفس الوقت الذي إستهلكت جزءاً من طاقته الجسدية.
ومن المؤكد أن فرويد كان يمارس ميكانزم إسقاطها على حياته وصحته وكتاباته ، لذلك قرر بعدها الإنتحار ، وطلب العون على ذلك من صديق طبيب.
يوم ٢٣ أيلول قام هذا الصديق بحقن فرويد ٣ جرعات من المورفين أدت الى موته خلال عدة ساعات.
بعد ٣ أيام من موته تم إحراق جسده في مراسيم تجمع فيها اللاجئون النمساويون في لندن.. ثم حفظ رماده في قارورة كانت قد أهدتها له الأميرة (ماريا بونابرت) الحفيدة الصغرى للإمبراطور نابليون ، وهي باحثة نفسية وكاتبة ، يعود الى ثرائها الفضل في إشتهار علم النفس ، وكانت هي التي ساعدت فرويد على الهرب من ڤيننا والوصول الى لندن

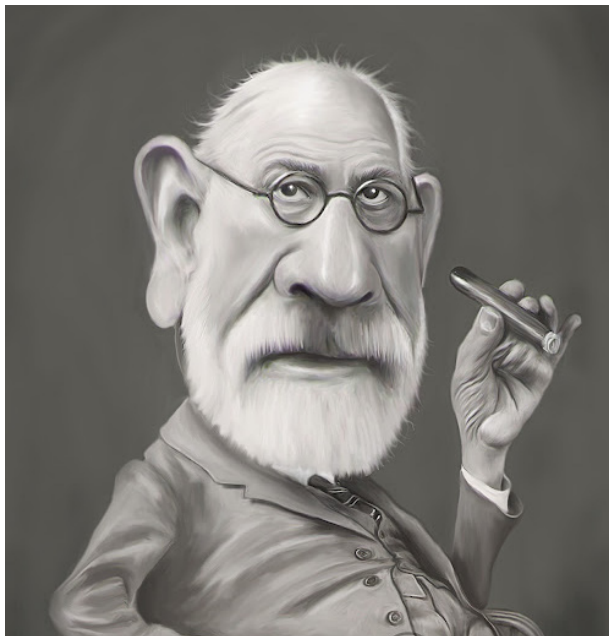

التسامي الفرويدي والابداع

محيي عيدان

يرى الرسام هنري ماتيس ان الوظيفة الحقيقية للفنان هو الابداع وحيث لا يوجد ابداع فسوف لن يكون هناك فن. فياترى، ما هو الابداع؟ هل هو موهبة فطرية؟ ام موهبة مكتسبة؟ فرويد رائد التحليل النفسي قام بتحليل نتاجات عينة من الشخصيات المبدعة والمتألقة في مجالات الفن والادب مثل ليوناردو دافنشي، فان كوخ دوستويفسكي، الماركيز دوصاد، وغيرهم، فوجدها مبدعة لا بفعل عامل الفطرة.
الا استثناءات قليلة فهذه الشخصيات لها من الذكاء مالها اضافة الى انها شخصيات مرهفة وواقعة تحت تأثير شغف لا يوصف بالفن، وحب جذب انظار الناس اليهم والاستحواذ على اهتمام النساء واعجابهم بالاضافة الى تأكيد الذات فهذه الامور كلها هي من مكونات شخصية الفنان الغير عادية، فالفنان برأي فرويد frued انسان يعاني من العصاب Neuroses الذي هو اضطراب عصبي وظيفي وقد ارجع العصاب الى اضطراب في الوظيفة الجنسية التي يسميها بالطاقة الجنسية Libido فالعصاب اي الذهان هو الذي يقف وراء ابداع الفنان، فرغبته في التخلص منه جعلته يتجه لا شعوريا باتجاه ما أطلق عليه فرويد بالتسامي sublimation وهذا المصطلح يطلق على (النزوة بمقدار تحولها الى هدف جديد غير جنسي، حيث تنصب على موضوعات ذات قيمة اجتماعية).
ويؤشرمصطلح التسامي على مصطلح السمو الذي يستخدم في مجال الفنون الجميلة للدلالة على النتاجات الفنية التي توحي بالعظمة والرفعة ويستخدم في الكيمياء للدلالة على عملية التحول المباشر لاحد الاجسام من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية فالتسامي عند فرويد هو(ذلك النوع من تعديل الهدف وتغيير الموضوع الذي يدخل فيه تقويمنا الاجتماعي للمسالة بعين الاعتبار).
فالتسامي هو عملية تحويل واعلاء للدوافع والنزعات والغرائز العدوانية والرغبات الجنسية الغير مشبعةالى نشاط ابداعي فني او فكري مثل الرسم والنحت وكتابة القصص والملاحم والمسرحيات، والاختراعات، ومزاولة الرياضة والطب. لقد بحث فرويد في الالية التي تقف وراء تحول ما اسماه النزوات الجنسية الى ابداع في مجالات الفكر والفن والعلم، فاشر ما يلي (تضع النزوة الجنسية كميات من القوة خارقة في كبرها بتصرف العمل الثقافي بفضل ما تتميز به من قدرة على ازاحة هدفها من موضوع الى اخر بدون ان تفقد اندفاعها الاساسي)
فالتسامي مصطلح اطلقه فرويد على القدرة على تعديل الهدف الجنسي الاصلي الى هدف فني او فكري او علمي، فرويد كان قد اشار ايضا الى امكانية تسامي النزعات العدوانية الى اهداف مقبولة اجتماعية، مثال، تتحول الماركيز دو صاد من انسان عدواني الى كاتب مرموق.
لقد اعتبر فرويد كل مكونات التراث الانساني وعلى مر العصور صورا من آلية التسامي بالغريزة الجنسية فالفن نتاج تسامي والادب نتاج تسامي وكذلك الطب والعلم والاختراعات وغيرها كلها نتاج آلية التسامي المفكر الامريكي الالماني الاصل هربرت ماركوز رد نشوء الحضارة الانسانية الى الغريزة الجنسية الايروس نظرية التسامي الفرويدي ذات رؤية واحدة وهو الجنس وماذا عن العامل الاقتصادي فشارلي ديكنز كان يكتب من اجل ان ياكل وعائلته بصورة جيدة، واما دوستويفسكي فكان يكتب تحت ضغط حاجته للمال ليلعب القمار وكان يكتب وكأن هناك وحي يملي عليه قصصه اخيرا فهناك الكثير مما يقال عن آليات ابداع الفنان.

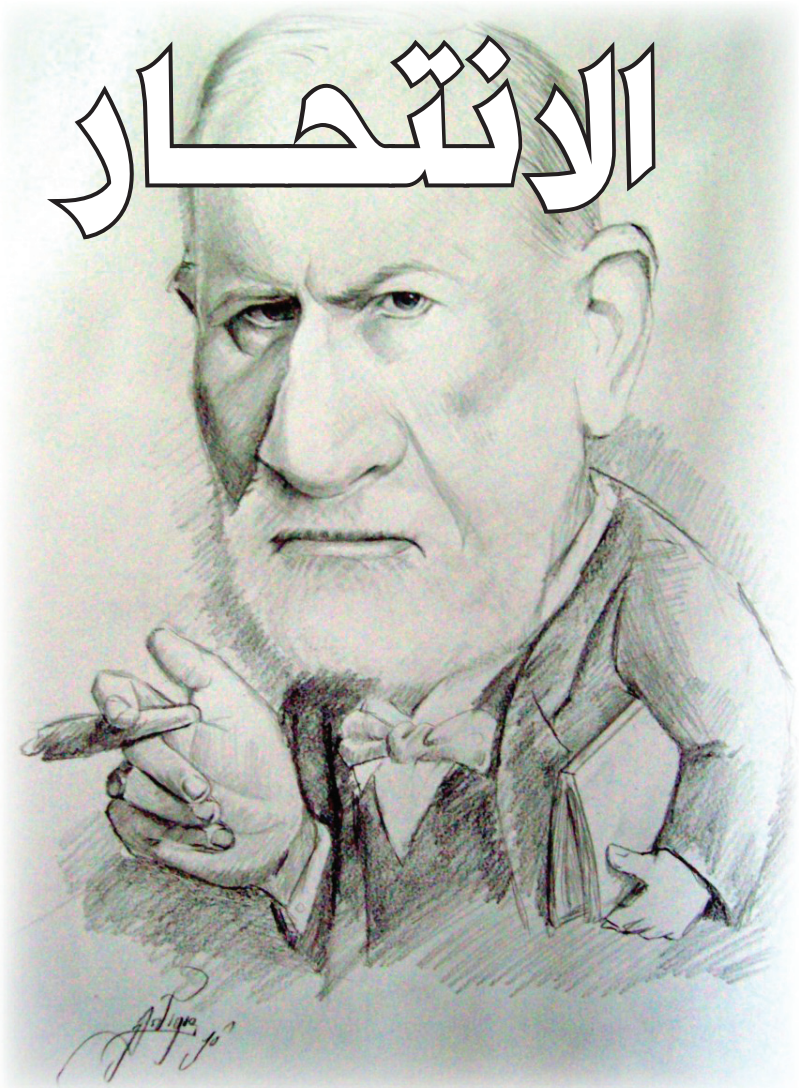

الانتحار في نظر التحليل النفسي

يرى نيتشه ان الموت نوعان، طبيعي، وهو هذه الظاهرة الطبيعية التي لا مفر، ولا حيلة للمرء في دفعها، ثم موت (ارادي) وهو الانتحار، الموت الطبيعي، هو موت لا دخل لارادة المرء فيه، وهو موت الجبناء، ويجب على الانسان في رأيه، حبا في الحياة، ان يريد الموت على نحو آخر، ان يريده حرا، يكون يوم عيد، بل اجمل الاعياد، الذي يقبل عليه الانسان طائعا مختارا ويجذبه بنفسه، ومن يمت موتا اراديا، يمت ظافرا، ومن حوله اناس قد شاعت في نفوسهم الاماني، وامتلأت قلوبهم بالتمنيات والآمال، اما الموت الطبيعي فهو الموت العبوس الذي يسترق الخطى كاللص ومع ذلك يأتي سيدا، لا مفر من الخضوع لمشيئته ولا حيلة في دفع سلطانه، هذا ما استهل به الباحث مكرم شاكر اسكندر دراسته (ادباء منتحرون)، ويعلق على هذه الافكار بالقول: انهم لبوا في اخلاص، ما دعا اليه نيتشه، وهم في الحقيقة فعلوا ذلك قبله بأزمنة سحيقة، وهم يدمرون ذواتهم في قسوة وعنف بالغين، في الوقت الذي قد يحزن فيه بعض الافراد اذا اصاب خدش احد اطراف اصابعهم، وهنا جاءت رسالته التي تقدم بها الى جامعة القاهرة بحثا معمقا عن السلوك الانتحاري المثير للدهشة، والاسى والحزن، بوصفه سلوكا مضادا للحياة، مدمرا للحياة ذاتها، فيه يدمر الفرد ذاته بيديه بدلا من ان يوفر لها اسباب الحياة، يودع العالم بما فيه، ومن فيه اسفا او غير اسف، وحيال ذلك تزداد الاسئلة تكرارا، لماذا يفعل المنتحر ذلك، ولماذا يقدم على ما لا يقدم عليه غيره؟ وما هي الاسباب والعوامل المؤدية الى ذلك الى غيرها من الاسئلة التي تصوغ كما هائلا من البحوث بشأن هذه المشكلة، او الظاهرة.

كاظم حسوني

السلوك التدميري

هذه الدراسة تندرج ضمن البحوث التي تحاول دراسة السلوك التدميري الذي اقدم عليه أديبان من اكبر ادباء القرن العشرين على حد وصف الباحث، هما الاديبة البريطانية فيرجينيا وولف، والروائي الاميركي ارنست همنغوي، وقد قام البحث بتحليل اربع روايات طويلة، اعتمد فيها، منهج التحليل النفسي الفرويدي، اشتملت الرسالة على ثلاثة ابواب، ضمت احد عشر فصلا، تصدرها مدخل للبحث، عرض فيه مشكلة الانتحار من جوانب متعددة، اوضح فيه الاستاذ مكرم شاكر هدف دراسته وخطة عمله، ويرى ثمة قصورا في البحوث التي تناولت قضية الانتحار، باعتمادها اسلوب الاستفتاءات كاختبارات لقياس العوامل الشعورية، فضلا عن ان الافراد موضوع الدراسة الذين يؤخذون(كعينة) بعد محاولاتهم الفاشلة في الانتحار، قد تؤثر فيهم تلك الخبرة المؤلمة التي خبروها، وهم يحاولون قتل انفسهم بقدر كبير او صغير، ما قد يجعل موقف الاختبارات حتى الاسقاطي منها، موقفا منفعلا او غير دقيق، ما يستدعي للقيام، ببحوث اكثر شمولا وعمقا، ما دفع بالباحث الى تبني منهج التحليل النفسي، لدراسة اعمال ابداعية لاثنين من ادباء القرن العشرين هما فيرجينيا وولف، وارنست همنغوي، وانطلق لدراسة اربع روايات لهذين الاديبين.

الاختلال والتشوش

في ما يتعلق بالاديبة وولف عرض تاريخ حياتها ابتداء من مولودها عام ١٨٨٢ حتى انتحارها غرقا في عام ١٩٤١، مشيرا الى تلقي تعليمها على يد والدها (سير ليسلي ستيفن) ووالدتها، واصفا حالات اكتئابها، واضطراب عقلها، اثر اعتداءات اخيها غير الشقيق(جورج) عليها، التي اورثتها الاضطرابات العاطفية، والانهيارات العصبية، ما دفعها للانتحار اكثر من مرة، الى ذلك ذهب الباحث الى تقصي علاقاتها بالرجال التي كانت يشوبها الاختلال والتشوش، اما علاقتها بليونارد وولف الذي تزوجها عام ١٩١٢، فقد سادها البرود والنفور الجنسي من قبل فيرجينيا، الى جانب ما كان ينتابها من انهيارات عصبية، وما تبديه من كراهية صريحة للرجال بما فيهم زوجها، لكن ظلت تشدهما علاقة معذبة استمرت الى عام ١٩٤١ حيث انهت فيرجينيا حياتها في نفس السنة، مخلفة وراءها نتاجا روائيا ثرا، منه(رحلة الى الخارج ١٩١٥) (الليل والنهار ١٩١٩) (حجرة يعقوب ١٩٢٢) (مسز دالواي ١٩٢٥) و(الفنار ١٩٢٧) التي اتخذت كنموذج من رواياتها للدراسة والتحليل، وجاء اختيار الباحث لها كون هذه الرواية تنطوي اهميتها لانها تصف حياة فيرجينيا الشخصية والاسرية، كاشفة الكثير من المشاهد والاحداث، والتخييلات الاكتئابية، والخلط الذهني، والعدوان المكثف الذي تكنه الكاتبة نحو الاب، الذي اظهرت الرواية مدى قسوته وساديته كما يرى الكاتب، الامر الذي فاقم من ازمتها النفسية والاجتماعية فضلا عن الصدمة التي تسببها اخوها (جورج) اثر العلاقة الجنسية المحرمة، وغيرها من الاسباب التي انتجت صراعا نفسيا اليما ظل ملازما لها طيلة حياتها، بعد ذلك ينتقل الباحث لدراسة الروائي العالمي ارنست همنغوي المنتحر ١٩٦١، الذي يصف النقاد اسلوبه بانه مفعم بالفحولة والحيوية والانبساطية، وينم عن احساس جمالي بالغ الرقة، عاش همنغوي متقمصا اهتمامات والده الطبيب الذي كان يمارس هوايات عديدة، مثل صيد السمك، وقنص الحيوانات، لكنه كان يعمل في الصحافة في بواكير حياته مراسلا حربيا لاحدى الصحف خلال الحرب العالمية الاولى مع الصليب الاحمر، وبدأت شهرته في ميدان الادب بعد صدور روايته(الشمس ما تزال تشرق ١٩٢٦)، وازدادت بعد نشر روايته (وداعا للسلاح ١٩٢٩)، كما شارك في الحرب الاهلية الاسبانية، وكتب عنها روايته(لمن تقرع الاجراس ١٩٤٠) التي لاقت نجاحا واسعا وترجمت الى عدة لغات، وعزز من مكانته الادبية في الاوساط العالمية، صدور روايته (العجوز والبحر) عام ١٩٥٢ التي اسهمت الى حد كبير في صنع مجده الادبي، وحصل عنها على جائزة نوبل عام ١٩٥٤. لكنه بعد سنوات قلائل اطلق الرصاصة على رأسه.

الدوافع الشائعة

يرى الباحث ان السلوك المرتبط بالانتحار يمكن ان يوضع على متغير، احد طرفيه الشعور بالامل، والطرف الآخر الشعور باليأس، لذلك يؤكد اصحاب هذا المنهج انه كلما زاد شعور الفرد باليأس، كان السلوك الانتحاري اكثر تهلكة، مشيرا الى ان اكثر الباحثين يرون ان فقدان الامل او اليأس هو من اكثر الدوافع الشائعة للرغبات الانتحارية، خاصة عند المرضى شديدي الاكتئاب، ويرى اكثرهم ان ازدياد معدلات الانتحار في اوروبا، كان ابان الانهيار الاقتصادي العالمي عام ١٩٣٠، في الوقت الذي تشير فيه الى انخفاض معدلات الانتحار بشدة في اوروبا ابان الحربين العالميتين، اما الوسائل فيعتقد بان نسبة الرجال الذين يستخدمون الشنق او الخنق، اعلى من نسبة الاناث، فضلا عن استخدام الاسلحة النارية من قبل الرجال دون النساء اللاتي يستخدمن وسيلتي الغرق او التسمم بالعقاقير، وحسب الباحث ان ابرز ما يلاحظ على محاولي الانتحار، هو الاكتئاب، وهو التشخيص الشائع، وهناك اقلية تعاني من الفصام، فضلا عن الحالات العقلية العضوية، ويذهب الى ان اختلاف الاتجاهات النظرية للباحثين، واختلاف توجهاتهم المهنية، انتج اختلافا في المنهجية، واثمر في النهاية اختلافا في النتائج المحصلة، لكنه يعد ذلك امرا طبيعيا في علم النفس، كما هو الشأن في العلوم الاخرى، الا انه يسجل مأخذا على الدراسات التي تناولت مشكلة الانتحار من خلال اشخاص حاولوا الانتحار، اذ يرى ان هؤلاء الافراد ليسوا جميعا بالضرورة كانوا يقصدون الانتحار، ومن جانب آخر، فان هذه الدراسات تقوم بعد اتمام هذه المحاولات وفشلها طبعا.. ما يجعل الدارس يشكك في صحة وصدقية هذه الاختبارات والتجارب، لذا يلفت الباحث الى انه لم يبق امام المختص الا القيام بدراسة المنتحرين الحقيقيين الذين تأكد انهم يقصدون تماما الانتحار، بدليل نجاحهم فيه، لكنه يتساءل كيف يمكن دراسة الموتى؟ ويجيب ان ذلك يمكن عن طريق دراسة آثارهم الفنية كالادب والفنون، وهنا كان الادب مادة البحث الرئيسة لهذا الكتاب، باعتماد الباحث نظرية التحليل النفسي الفرويدي منهجا لدراسته التي لا تقف عند حدود السلوك الظاهري للفرد انما تمتد الى اعماقه دون ان يطابق بين السلوك الظاهري المحدود والحياة النفسية الثرية التي تحتل فيها المضامين اللاشعورية حجر الزاوية، وفي ضوء ذلك يصف الانتحار من وجهة نظر التحليل النفسي بانه المحصلة النهائية لعمليات لا شعورية بالغة العمق والثراء والتعقيد، ويرى ان الحياة النفسية هي محصلة الوحدة والصراع الجدلي بين غرائز الحياة وغرائز الموت.

الابداع يرمز لشخصية الفنان

اما النموذجان المتمثلان بالكاتبة الانكليزية فيرجينيا وولف، والروائي الاميركي همنغوي، فقد جاء اختيارهما حسب الباحث عشوائيا ضمن المنتحرين وتحليل ابرز اعمالهما التي يمكن من خلالها الافصاح عن نوازعهم وهواجسهم وافكارهم، وعوالمهم النفسية الخفية، واخضاعها للبحث المختبري، كرواية(الفنار) لفيرجينيا وولف التي تكشف عن حياة الكاتبة وازماتها الاسرية، وصراعها النفسي الاجتماعي.. وبالنسبة لهمنغوي فقد اختيرت له ثلاث روايات تمثل في حقيقتها تغطية زمنية لحياته، وهنا تجدر الاشارة الى ان الكاتب لا يهدف من بحثه ايجاد تفسير لعملية الابداع الفني، انما التحليل النفسي ضمن ما يقره فرويد(لا يملك ان يكشف عن طبيعة الموهبة الفنية، ولا يستطيع ان يبني الوسيلة التي استخدمها الفنان، اي الاسلوب الفني)، ويؤكد المختصون ايضا ان التحليل عاجز عن حل مشكلة الابداع من حيث هو عملية سيكولوجية تنتج صورا ومعاني جديدة مبتكرة، ولا يستطيع ان يفسر عبقرية المبدعين، لكنه يسعى الى كشف العوامل التي ايقظت هذه العبقرية، لذا نبه الباحث ان هدف هذه الرسالة يأتي في المقام الاول لتحليل شخصية الاديب من خلال دراسة اعماله، وبهذا الشأن يورد كلمة(لفرويد) عن الفن والفنانين يقول فيها(الفنان شخصية ذات استعداد منطو، وليس بينه وبين العصاب شقة بعيدة، وهو شخص تحفزه نزعات عنيفة صاخبة، فهو يصبو الى الظفر بالقوة، والتكريم، والثراء والشهرة، ومحبة النساء، لكن تعوزه الوسائل الى تلك الغايات، لهذا فهو يعزف عن الواقع شأنه في ذلك شأن كل فرد لم يشبع رغباته، ويتصرف بكل اهتمامه، وبكل طاقته الليبيدية ايضا الى الرغبات التي تخلقها حياته الخيالية، ويضيف: الفنان يعرف كيف يفرغ على احلام يقظته صورة تجردها من طابعها الشخصي الذي يثير التبرم والضيق في نفوس الغير، وبذا تصبح مصدرا للذة والامتاع، كما انه يعرف كيف يحورها، ويشكلها بصور معبرة عن الافكار التي ينضمها خياله تعبيرا صادقا، ويموه عن الام الكبت، وحين يفلح في هذا كله يمنح الآخرين فرصة، هي بلسم وعزاء، ومتنفس لمنابع اللذة اللاشعورية لديهم، وبذلك يغدو خليقا بتقديرهم واعجابهم، وبذا يكون قد ظفر عن طريق خياله بما لم يوجد من قبل الا في خياله، التكريم والقوة، ومحبة النساء، وبذلك يتحول العمل الفني الى مظهر من مظاهر السلوك.

علاقة مزدوجة

ويحاول الدكتور يوسف مراد تفسير السلوك بمفاهيم التحليل النفسي، وربط شخصية الفنان باثره الفني، الذي يعبر بطريقة رمزية عنه، وعن دوافع السلوك الشعورية واللاشعورية.. ويرى ان العلاقة القائمة بين الاديب وعمله، هي علاقة مزدوجة ذات اتجاهين، اذ يمكن تحليل العمل وتفسيره بالقاء الضوء على بعض اتجاهات الاديب ودوافعه، وما قد يعانيه من صراعات نفسية، وما اكتسب من خبرات في فترة الطفولة، يمكنها جميعا ان تساعد على تحليل الادب، فالمبدأ الاساس في مجال تطبيق التحليل النفسي لدراسة الابداع الفني في

نظرية فرويد يذهب الى ان افكار اي شخص وعواطفه وافعاله في لحظة ما، تتوقف توقفا تاما على تطور دوافعه الشخصية وتشكيلها خلال الخبرات التي سبق ان عاناها، مشيرا الى الدور المميز الذي تضفيه الطفولة في تكوين الشخصية، ويخضع هذا التكوين لتأثير عاملين اساسيين، هما النزعات الغريزية من جهة، واهمها الجنسية والعدوانية، وطبيعة الموقف السيكولوجي والاجتماعي من جهة اخرى، ويعتقد فرويد ان الفن ينتج حين يندفع الانسان تحت وطأة رغباته اللاشعورية الى انتاج ما يشبه اشباع تلك الرغبات، وبذلك تكون الاعمال الفنية معبرة عن حياة الفنان اللاشعورية، بما فيها من ذكريات مكبوتة، تنحدر الى عهد الطفولة كعقدة اوديب، او حب المحارم، وبالتالي فان الفن هو ضرب من الاعتراف الذي يريد الفنان عن طريقه ان ينفس عن رغباته المحبوسة، ويعرف الفن في رأي الباحث: بانه انفجار لا شعوري يحدث في الحياة الشعورية لتلك الرغبات التي لم ينجح الرقيب في كبتها، ويخضع الفن لتأثير الميول الجنسية والرغبات المحرمة، التي تلزم الفرد بان يختار واحدا من امرين، فاما الصراع مع العالم الاجتماعي، او التوازن الباطني، ويضيف بان الفن كالجنون من حيث انه تحرر من العقد الغامضة، وتحرير للطاقة، وهو تطهير واخراج.

مظاهر الفحولة

عند تناول فرجينيا باعتبارها النموذج الاول للباحث في رسالته، يصف حياتها العاطفية منذ البدء بانها بدأت بجرح غائر، سببه لها اخاها غير الشقيق(جورج) بمداعباته الجنسية لها، التي تحولت فيما بعد الى ممارسات في حجرة النوم! ما جعلها تتعرف على الحب الآثم وهي صغيرة، بصورة تختلف عن الافلاطونية البريئة التي رسمتها في ذهنها على حد تعبير الكاتب، وغدت تشعر وهي صبية ان اخوها قد حطم حياتها وافسدها قبل ان تبدأ، ويضيف: ولما كانت فيرجينيا تخجل من النواحي الجنسية والعاطفية ازاء ما حدث لها، اثرت الصمت واصبحت ترتعب منها، واضطرت لكي تحمي نفسها الى اتخاذ مواقف سلبية جامدة باردة حيالها، لكن مشاعرها ومواقفها وافكارها اتضحت في روايتيها(مسز دالواي) و(الفنار) كما يرى الباحث، فضلا عما اكدته مذكراتها التي دونت فيها حالات اضطرابها، وما يصاحبها من اعراض ارتفاع نبضها، وسرعة غضبها، وما اصابها من الاكتئاب والنفور، حتى اصبحت تخشى الناس، وتخافهم، ويحمر وجهها خجلا اذا ما خاطبها احد، وتمشي منكسة الرأس. فكانت محاولتها الاولى للانتحار حينما القت نفسها من نافذة لم تكن عالية، وقد وصفت حالها لاختها في مذكراتها عام ١٩١١ (لم استطع الكتابة، خرجت كل الشياطين سوداء كثيفة الشعر، ها انا في التاسعة والعشرين، دون زواج، مثال للفشل، دون اطفال، مجنونة ايضا، لا اجيد الكتابة) وتفشل علاقتها مع(والتر هيد لام) وتفشل ايضا مع(ليتون ستراش) الذي طلب يدها ١٩٠٩، لكنها تتزوج عام ١٩١٢ من ليونارد وولف، ورغم الحب الذي نشأ بينهما، لكن ليونارد يفشل رغم سعيه الحثيث في ان يعيد لفيرجينيا انوثتها، وثقتها بنفسها، وينسيها خوفها من الرجال. ما جعل الجميع يلقون باللوم على اخيها(جورج) الذي حطم حياتها، وتركها فريسة للتخيلات المريضة والهلوسات والخوف، وفي ١٩١٣ تسوء حالتها الصحية والنفسية، وتشتد فيها النزعة الانتحارية، فتتناول مائة حبة من(الفيرونال) لتقضي على حياتها، وتظل في رعاية الممرضات حتى نهاية العام.. وبعد تحسن نسبي يعاودها الاضطراب فتدخل احدى المصحات، في عام ١٩١٥ تظهر فيها اعراض الجنون، كالثرثرة، والتشوش الفكري، والتحدث دون توقف حتى ينتهي بها الامر الى اللغو والبربرة، كما ينقل مؤرخ حياتها.

الباحث يدعو القارئ الى تأمل رواياتها(كالامواج) و(الفنار) اذ يمكنه ان يلحظ هلوساتها، واجواء الاكتئاب والحزن والتوتر، رغم ما يؤطر هذه الصفحات من جمال الفن، الى جانب ما كتبته في مذكراتها عام ١٩٢٨(انا تعسة، تعسة، مكتئبة، منقبضة، يا الهي، اني اتمنى الموت، ولكن لماذا هذا الاحساس، لارقبن الموجة وهي تعلو، اني ارصدها)، ويضيف الباحث ان فيرجينيا كانت تحاصرها صورة مفزعة ذكرتها في مذكراتها لـ(زعنفة) تتهددها بالخطر، وهي تراها تشق الامواج، تريد افتراسها، وتدخل في دوامة الامواج حتى تصاب بانهيار مفاجئ، من ناحية اخرى رصد انحراف فيرجينيا الجنسي، وتشوه انوثتها، وقد تمثل ذلك بالعلاقة الشاذة التي اقامتها مع صديقتها(فيتا ساكفيل)، ووقوعها في غرامها، حيث احبتها بتلهف رجالي، حسب تحليل صاحب الرسالة، رغم ان فيرجينيا في ذلك الوقت كانت في الاربعينيات من عمرها، ويرى في روايتها(اورلاندو) تعبيرا عن هذه العلاقة، وتخليدا لهذا الحب الجنسي الذي كانت تكنه لصديقتها(فيتا)، في عام ١٩٣٢ اي في الخمسين من عمرها تنشر روايتها(الامواج) وبعدها باعوام قلائل تبدأ الحرب الاهلية الاسبانية، فتتأثر فيرجينيا بذلك لانها تكره العنف، وفحولة الرجال، وحين تنشب الحرب العالمية الثانية بعدها بثلاثة اعوام تزداد مخاوفها واحزانها خاصة عندما بدأت تلاحظ شوارع لندن تمتلئ بالاجئين، وكان من بينهم(فرويد) فتقرر زيارته، حينها اهداها زهرة نرجس، في ١٩٤٠ تتأزم اكثر اثر تطورات الحرب واخبارها المفجعة، فتهرب الى منزل ريفي بجوار نهر(اوز)، وتطوف من جديد فكرة الانتحار بذهنها، فتفكر باستعمال غاز السيارة المحترق، او باستخدام(المورفين)، كما جاء في مذكراتها، ومع مرور الايام كانت لا تفكر بشيء سوى الانتحار، بعد ان اغرقتها كوابيس حياتها الخاصة، والام الحرب واخبارها المدمرة.

(الفنار.. رغبات فيرجينيا المكبوتة)

في صباح ٢٨ مارس/ آذار ١٩٤١ خرجت فيرجينيا الى شاطئ النهر، وهي متحرقة لانهاء حياتها، وقبل وصولها الى الضفة عمدت الى حشر الاحجار الثقيلة في جيب معطفها، ثم القت بنفسها وسط الموج لتموت غريقة كما ارادت.. واثر موتها كان من بين تعليقات النقاد ان الكاتبة كانت قد رثت نفسها كميتة، ورثت الحبيب الميت، مثلما رثت الحب، في العديد من رواياتها التي تزخر باعترافاتها والامها ومخاوفها، خاصة في روايتها(الفنار) التي تميزت باسلوب بارع في الاعتراف، الى جانب عنصر آخر هو(البحر) الذي يسمع في الرواية في كل مكان. كما وصفه الباحث مضيفا بان(الفنار) فيها الكثير من الاشارات الدالة على اضطرابها العقلي، وعلى هذياناتها، والرواية برأيه تنضح كلها بالاكتئاب، والتخيلات السوداء، ملفتا الى ان الرواية تلخص رغبات الكاتبة اللاشعورية، وتعبر عن مشاكلها، والامها النفسية والعاطفية، واضطرابها العقلي، مثلما تفصح عن رغبتها في ان تصبح رجلا!.

وداعا للسلاح ورغبة التلاشي

بعد ذلك ينتقل الباحث الى قمة ادبية اخرى هو الروائي المعروف همنغوي، متناولا في الدراسة اهم اعماله(وداعا للسلاح) (لمن تقرع الاجراس) (العجوز والبحر)، في مسعى حثيث لاستنباط الدوافع والاسباب

التي دفعت مؤلفها الى الانتحار، عبر ابداعه الروائي، كما حصل مع الروائية فيرجينيا وولف، لان الادب والابداع عموما يعبر كما اسلفنا عن شخصية الفنان والاديب، وعن اعماقه الخفية، ورغباته وعقده، مثلما يفصح عن خبرات الطفولة، خاصة السرد الروائي اذ يمكننا التعرف من خلاله على افكار وآراء وفلسفة الكاتب، وفي ضوء ذلك يرى الباحث ان همنغوي في روايته (وداعا للسلاح) كان يصرح على المستوى الشعوري عن عدم جدوى الحرب، معلنا ادانته لها، لكنه يظهر على المستوى اللا شعوري، رغبة دفينة لا شعورية عميقة في العودة الى رحم الام، ثم الموت بعد ذلك! ويضيف ان(وداعا للسلاح) تشير بقوة الى نزعة اكتئابية مازوخية، ورغبة لا شعورية الى التلاشي او عدم الوجود، او الوصول الى العدم والفناء، وفي الرواية نرى ان الرحم والحرب تلفظ موتا، لكن البطل يود الا يكون قد وجد اصلا حيا! وان يكون قد مات قبل ان يوجد، ويذهب الباحث الى ان الصفحات الاولى للرواية تحمل اجواء اكتئابية، سوداوية للحياة، والوجود، وتتضمن ما اسماه (الحب موتا)، حين يجعل الروائي بطله(هنري) يقع في حب الممرضة (كاترين) ثم يميتها في النهاية، ويميت جنينها ايضا، انها ثيمة الحب الذي يموت، وهذا ما تؤيده فروض (فرويد) عن نزعة المريض السوداوي في القضاء على نفسه، وعلى الانسان الذي يحبه ايضا.

(نزعة الحب موتا)

رواية(لمن تقرع الاجراس) تعبر عن هذه النزعة من خلال بطله(روبرت) في حبه للفتاة الاسبانية(ماريا) اذ يعبر عن الحب الذي يكنه لها قائلا (انني لاود ان اموت ونحن نمارس الحب)، والحب موتا يشاهد ايضا في كل انحاء الرواية، فمعظم الشخصيات الحبيبة للبطل تموت في الرواية، وهذا لا يأتي مصادفة على حد تعبير الباحث موضحا بان همنغوي يدمج على الدوام موضوع الحب في اعماق ذاته، وفي لا شعوره، لكنه يميت هذا الموضوع، في اعمق اعماقه، فضلا عن اجواء القتل والموت في الروايتين، ففي(وداعا للسلاح) تكون الحرب العالمية الاولى الخلفية التاريخية للاحداث فيها، وفي (لمن تقرع الاجراس) الخلفية هي الحرب الاهلية الاسبانية. ثم يعود ليؤكد بان الحروب في روايات همنغوي تأتي ضمن مشروع العدوان الموجه للآخرين وللذات ايضا، اما في رواية (العجوز والبحر) فتتمثل نزعة الحب موتا من خلال حب العجوز للسمكة، حين يكلمها(ايتها السمكة اني احبك واحترمك كثيرا، ولكني ساصرعك حتى الموت قبل ان ينتهي هذا اليوم) وفي مكان آخر يكشف بان العجوز يقرر لا شعوريا قتل ذاته، وهو يبرر هذا القرار(قرار قتل الذات) بانه اصبح عجوزا، وخلص الباحث عبر دراسته لروايات همنغوي الى القول: ان الرغبة الانتحارية لديه كانت قابعة في اعماق لا شعوره وقد سجلها في روايته(وداعا للسلاح) وبقية اعماله، من كل ذلك يتضح ان احد اهداف الدراسة التي اعتمدت تحليل الاعمال الابداعية للكاتبين فرجينيا وولف، وهمنغوي هي محاولة للتأكيد على الحتمية السيكولوجية، التي تشير الى ان كل ما يصدر عن الانسان، انما يعبر ويرمز الى مكوناته النفسية والى اعماقه اللاشعورية.. وقد كشفت الروايات العديد من الجوانب الخفية، والمشاكل النفسية، ويلفت الباحث الى ان دراسته تؤيد طروحات التحليل النفسي الفرويدي، في تفسيره لديناميات الانتحار وارتباطه بالاكتئاب من ناحية ومراحل تطور البناء النفسي وكشف نزعات العدوان من ناحية اخرى، كما تجلى لدى الاديبين على نحو مكثف وعنيف ومدمر، للاخرين، وللذات، مبينا بان مظاهر العدوان الموجه ضد الذات تتمثل بالقدر الهائل من المازوخية لدى الاديبين، والرغبة في ايذاء الذات وتبكيتها، اما الصور العدوانية فتمثلت في مشاهد الحروب والتدمير، والموت،، والمازوخية لديهما تصل الى الذروة ثم تتحول الى تحقيق رغبة عميقة ودفينة، في تدمير الذات، وهذا ما تم استنباطه من الروايات التي تمت دراستها.

اذا اقترن التصعيد والاضطراب النفسي في روايات فيرجينيا وولف الى دفعها للانتحار غرقا، وتحقق عند همنغوي باطلاق الرصاص على نفسه.

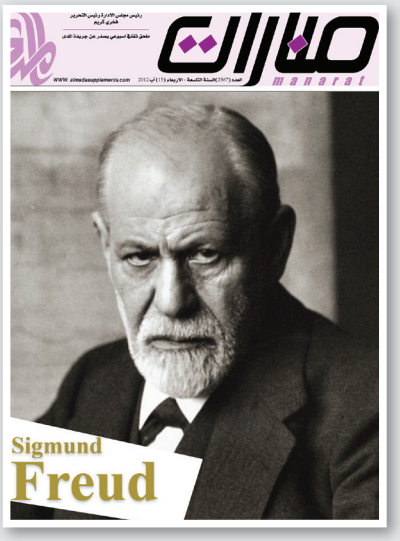

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

منهــج خطــر..
ديفيد كرونبرغ عن فرويد

عباس المفرجي

((هؤلاء المحللون النفسيون يكلفون الكثير!)) تعلّق واحدة من شخصيات وودي الن في "الثأر"، ((في أيامنا، مقابل خمس ماركات كان يعالجك ويجسّ نبضك فرويد نفسه)) فيلم ديفيد كونينبرغ مقتبس من مسرحية كريستوفر هامبتون "العلاج الناطق"، حول فرويد، يونغ ومريضتهما المشتركة، التي تصبح في ما بعد زميلة مهنة، سابينا سبيلراين. إنه تذكير مسلٍ بأن الغريزة الجنسية كان لها يوم رابط سيكولوجي حميميٍ بالفقر.

هذا فيلم ممتاز، موزون، وثرثار؛ حتى مغامرته الجنسية تعرَض بتجرّد كلينيكي [تحليلي]، وثمة اتجاه مضحك لكوميديا سوداء. كرونينبرغ غالبا ما يكون مرتبطا برعب الجسد، لكن في هذا الفيلم، الأقرب الى هذا النوع هو إلتواءات وجه كيرا نايتلي، وهي تلعب دور سابينا سبيلراين في قمة اضطرابها الذهني؛ الشابة الروسية التي تجلب محمولة، وهي ترفس وتصرخ، إلى العيادة السويسرية لكارل غوستاف يونغ، الذي يلعب دوره مايكل فاسبندر بطريقة الاكليركي المتشامخ. حين تطلق صرخات ذعر وألم وتعوي، يتدلى فك سابينا إلى الأسفل بطريقة مخيفة، أشبه بفم كائن ريدلي سكون الفضائي عندما يخرج من بطن جون هارت.

تتقاطع حياة سبيلراين ويونغ مع حياة الأستاذ العظيم فرويد، الذي يؤدي دوره فيغو مورتنسن. يستثار يونغ الطموح بفكرة تطبيق طريقة فرويد الجديدة في "العلاج الناطق" على سابينا، بكونه أول محلل نفسي سيقوم بها على الإطلاق، إذ أن فرويد، كما فعل داروين قبله، لم يكن يرغب بنشر أفكاره على الملأ. لكن كرونينبرغ يرينا أن هناك توترات شبه أوديبية بين الرجلين: احدهما ثري راض عن نفسه، وتمتلك زوجته ثروة، والآخر يهودي، يعيل عائلة كبيرة تسكن في شقة صغيرة ؛ حياته أكثر صعوبة ويرى في الآخر الأصغر منه سناً شخصا مغرورا وساذجا. فرويد يصر على أن الجنس هو القاعدة الرئيسية ؛ يونغ لديه أفكار مغايرة، منها اهتمامات غريبة الأطوار وشاذة في الظواهر النفسية والتخاطر. لكن الأمر لا يستغرقه طويلا في تشخيص الكبت الجنسي في حالة سابينا، الناجم عن الضرب الذي تتعرض إليه في طفولتها، والذي يؤدي إلى رغبات مازوشية في الكِبر. يجد يونغ نفسه عاجزا عن مقاومة حب سابينا، ويعملان على قضيتهما المشتركة خلال جلسات علاج نشيطة. كان هذا قبل أن يسمع أحدا عن "قضايا الحد الفاصل"، أو "الاتصال غير الملائم".

"التحوّل" هو ما يصف به الفرويديون التوجه الجديد للمشاعر تجاه المعالج، وثمة نمط مثلث غريب بين سابينا وفرويد ويونغ، تكون فيه العلاقة العاطفية الثلاثية فعّالة أكثر من العلاقة بين يونغ وسابينا وزوجته. يونغ مايكل فاسبندر، صعب الإرضاء ودقيق، لا يهتم كثيرا جدا بالجنس مع سابينا، بل يتوقع صنع اسم لنفسه واخذ مكان الأستاذ. فرويد فيغو مورتنسن، لطيف ومتسامح ومبهم.

أبدع كرونينبرغ دراما عن الهستيريا الذكورية من دون الاهتمام بتشخيص حالتهما الخاصة بهما ـ ربما كانت مسيرتاهما المهنية عَرَضا متواصلا، معقدا. ما الذي دفع يونغ الى أن يجعل سابينا مساعدة له، إن لم يكن يرغب بفرض نفسه جنسيا عليها؟ يتيح لنا المخرج تأمل بواعث فرويد بتوجيه يونغ الى مريض معين: الفوضوي أوتو غروس (فنسنت كاسل)، رجل تحث شهوانيته، التي لا سبيل إلى إصلاحها، يونغ على إغواء سابينا. مَن يقوم بفعل الإغواء هنا؟ ألا يمكن أن فرويد وجد وسيلة لإجبار يونغ على الاعتراف بأولية الجنس؟ أو حتى إنه يحاول أن يدبر فضيحة في زواج يونغ، ويدمّر حياة شاب صفيق يطالب بعرشه؟

مع بعض الكبح، لا يلعب كرونينبرغ وهامبتون على وتر التوريات الألمانية، المعرّضة لكثير من النقاش، في ثلاثة أسماء رئيسة: هذا يعني، اسم فرويد الذي يقابل معنى الفرح [في اللغة الألمانية]، ويونغ الذي يقابل كلمة شاب، وسبيلراين الذي يقابل أما "اللعب بنقاء" (سبيل- راين)، أو "اللعب في الداخل"، أو حتى "اللعب في داخلي" (سبيل- هيراين). هذا ممكن، لأن فرح فرويد يظهر في عرْض قصير. هو رجل في خريف العمر، وعليه أن يوفق بين هذا وواقع أن أفكاره، التي ما زالت في مهدها، وُضِعت كي يرثها شاب هو غير راض عنه أبدا.

سابينا كيرا نايتلي، امرأة مخدوعة إلى حد بعيد، مقنعة ومغرية بشدة، حين تسلب لب يونغ بنظريات إهتياجية عَن الإبداع مبنية على فاغنر، والتي تؤمن بأنه فقط من خلال شرّ عظيم أو انقلاب تدميري يمكن لشيء جديد وديناميكي أن يولد. كانت خاضعة لصدمة كهربائية بكونها أتخذت عشيقة ليونغ، ومن ثم كتلميذة له على نحو فعلي. من الممكن أن أفكارها الخاصة بها، ومهنتها كمحللة نفسية، ستبعَث من رماد علاقة يونغ مع فرويد.

((أنت تنظر نحو المستقبل))، يقول يونغ لفرويد، وهما يحدقان في الأفق الباهت غير الواقعي لمدينة نيويورك من على سطح السفينة البخارية التي جاءت بهما من البلد القديم. لكن ذلك هو ما كانا عليه هما نفسيهما، هذان النيّقان، المفكران المتنافسان، اللذان كانت أفكارهما شكلا لأشياء قادمة؛ اللذان جعلا من نفسيهما موضوع فضول للمستقبل الذي صاغ حاضرنا.

عن: صحيفة الغارديان

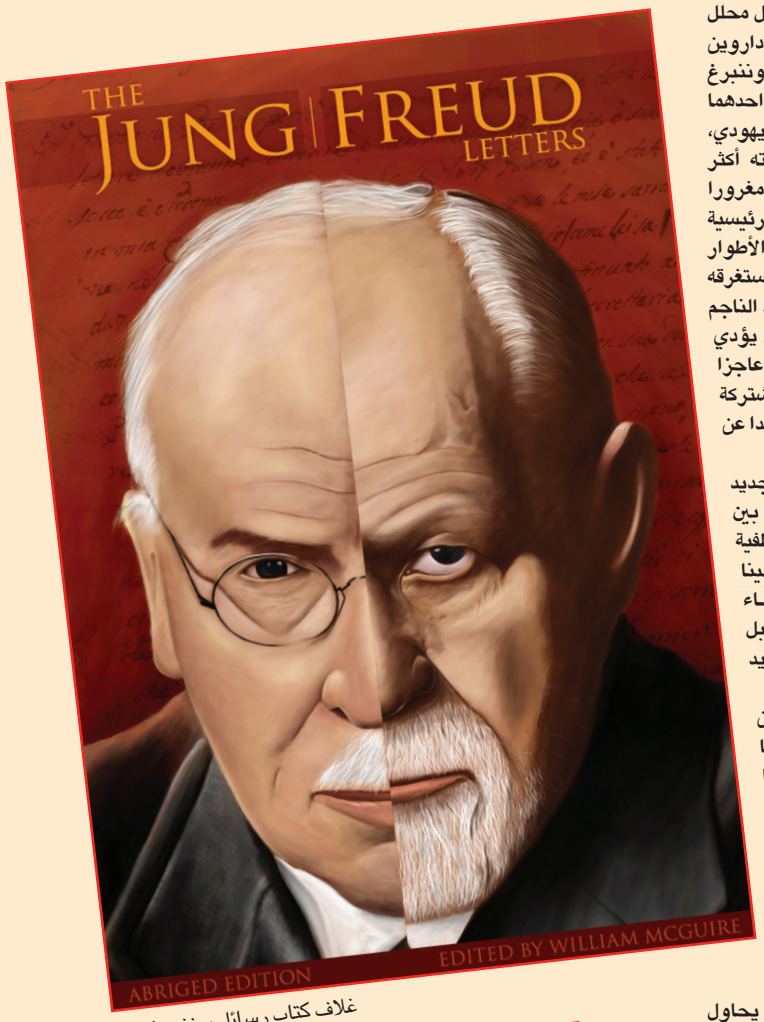

غلاف كتاب رسائل يونغ – فرويد

ملصق فيلم (طريقة خطرة)